السيرة الذاتية لعباس خضر

دراسة موضوعية نقدية

دكتور/ الريدي عبد الحفيظ عبد الرحمن حمدان

مدرس الأدب والنقد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

جامعة الأزهر الشريف

المقدمة

حمدًا لله وشكرًا، وعرفانًا بفضله وذكرًا، وصلاةً وسلامًا على خير الورى طُرًّا، وعلى الآل والصحب الكرام قدرًا.

أما بعد..

فكم في تاريخنا الأدبيّ من نوابغ أغفلهم التاريخ، فمع نشاطهم الثقافيّ والأدبيّ إبداعاً ونقداً إلا أنّهم لم ينالوا حقهم من الدراسة والضوء، ومن هؤلاء النوابغ (عباس خضر) الأديب والناقد، الذي شغل الساحة الأدبية زمناً، فأثرى المكتبة العربية إبداعاً ونقداً، ثم لم يلق نتاجه ما هو قَمِنٌ به من الدراسة الاهتمام.

وكأنّ إلهاماً أوحى إليه بمصيره، فسطر بقلمه خطوات حياته وما فيها من آلام وآمال، وبيئته وعصره وما فيهما من شقاء وهناء، والحياة الثقافية والأدبية وما فيهما من أسرار وأخبار، سطر ذلك قبل أن يمحو النسيان آثاره، ويطمس الإهمال أخباره، فجاءت سيرته الذاتية شاهداً على نفسه وعصره والحياة الاجتماعية والأدبية والثقافية التي عاصرها، فروى أخباراً وأسراراً عن الحياة الأدبية في الفترة ما بين الثلاثينيات وحتى السبعينيات من القرن العشرين، وهنا تكمن القيمة التاريخية والاجتماعية والأدبية لسيرته.

ويقترب من عباس خضر في قلة الاحتفاء به أدب السيرة الذاتية من حيث التأصيل والدراسة؛ إذ لم ينل ما يستحق من التنظير، فعلى الرغم مما كتب حوله من دراسات إلا أنها لم تصل إلى تحديد دقيق للمفهوم، ولعل هذا راجع إلى تنافذ أدب السيرة الذاتية على بعض الأجناس الأدبية التي يستعير منها بعض خصائصها، ولكن ينبغي أن يظل لكل جنس أدبيّ معالم تميزه، وتعريفاً دقيقاً يوضح ماهيته وكينونته.

وبناء على ما سبق كان الدافع إلى هذا البحث ثلاثة عوامل مجتمعة:

الأول: أدب السيرة الذاتية وما فيه من جمال وجلال يجذب المتلقي ويمتعه، وأيضًا ما اعترى الدراسات حوله من بعض القصور في تحديد المفهوم، فأراد البحث أن يسهم فيه بسهم.

والثاني: عباس خضر وما ناله من تجاهل له ولأعماله الإبداعية والنقدية.

والثالث: سيرة عباس خضر الذاتية وما فيها من قيمة تاريخية واجتماعية وأدبية.

تعاضدت تلك العوامل الثلاثة فأثمرت هذا العنوان: (السيرة الذاتية لعباس خضر دراسة موضوعية نقدية).

ولأن جوانب البحث متشعبة تتجاذبها نواح فنيّة وتاريخيّة ونفسيّة واجتماعيّة وأسلوبيّة، كان المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج التكاملي؛ لأنه أقرب المناهج إلى طبيعة العمل الأدبيّ الفنيّة، فهو يستمد من المناهج الأدبيّة الأخرى كل ما يراه مناسبًا، وضروريًّا، ومعيناً على إصدار أحكام متكاملة على العمل الأدبيّ من جميع جوانبه.

وقد اقتضت طبيعة البحث – حسب صيغة العنوان – أن يتكوّن من مبحثين يسبقهما مقدّمة فتمهيد، ويعقبهما خاتمة، ثم فهرس للمصادر والمراجع.

فأما المقدمة: فها هي ذي تتناول أهميّة الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج وخطة دراسته.

وأما التمهيد: فيتناول أدب السيرة الذاتيّة من حيث تحديد المفهوم الدقيق، وتلمس الخصائص الفنيّة المميزة.

وأما المبحث الأول: فيعرض الموضوعات التي تضمنتها سيرة عباس خضر الذاتية، وهي: المراحل العمرية، والحياة التعليمية، والحياة العملية، والحياة الاجتماعية، ودهاليز الحياة الأدبية، والمؤثرات في شخصيته.

وأما المبحث الثاني: فيتناول بالنقد والتحليل السيرة الذاتية لعباس خضر من حيث: البناء الفني، والأسلوب، وتصوير الشخصيات والصراع، والصدق والتعري النفسي والاعتراف، ومدى دلالة السيرة على شخصية كاتبها.

وأما الخاتمة: ففيها عرض لأهم نتائج البحث.

والله أسأل قلباً متقلباً مع الحق، ولساناً متحلياً بالصدق، وإعانة على الإبانة، فبه أستعين وهو نعم المعين. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

الباحث

د / الريدي عبد الحفيظ عبد الرحمن حمدان

مدرس الأدب والنقد بكلية البنات الإسلامية بأسيوط

جامعة الأزهر الشريف

(١) سورة هود : من الآية ٨٨ .

التمهيد

أدب السيرة:

(المفهوم والخصائص الفنية)

ويحتوي على:

- أولاً: الدلالة اللغوية والاصطلاحية للسيرة بوجه عام.
- ثانياً: فنيّة أدب السيرة.
- ثالثاً: بين الترجمة والسيرة.
- رابعاً: أنواع السيرة إجمالا.
- خامساً: السيرة الذاتية الفنية.
- سادساً: السمات الفنية للسيرة الذاتية.

أولاً: الدلالة اللغوية والاصطلاحية للسيرة بوجه عام.

السيرة في اللغة تعني: "السنة والطريقة والهيئة"(١)، "وسيّر سيرةً: حدّث أحاديث الأوائل"(٢).

وكاتب السيرة في واقع الأمر يورد تاريخ إنسان ما أو نفسه، متحدثاً عن منهجه وطريقته في الحياة وهيئته التي كان عليها، وبهذا يلتقي المدلول اللغوي مع المدلول الاصطلاحي العام، إذ عرفت المعاجمُ التخصصية في الأدب السيرةَ بأنها: "مصطلح يدل على سيرة الحياة، أو ترجمة الحياة، وهي عبارة عن ترجمة حياة أحد الأعلام"(٣).

(١) القاموس المحيد للفيروز أبادي ١/ ٤١٢ – ت / مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف/ محمد نعيم العرقسوسي – ط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت لبنان – الثامنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م (مادة: س . ي . ر).

(٢) لسان العرب لابن منظور الإفريقي ٤/ ٣٨٩ : ٣٩٠ – ط دار صادر – بيروت – الثالثة – ١٤١٤هـ (مادة: س . ي . ر).

(٣) المعجم المفصل في الأدب إعداد الدكتور محمد التونجي ٢/ ٥٣٦ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الثانية – ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

ثانياً: فنيّة أدب السيرة.

السيرة في العصر الحديث صارت نوعاً من الأنواع الأدبية وجنساً من أجناسه "يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصيته"(١).

وقد انفصلت السيرة عن علم التاريخ وأضيفت إلى الأدب بوصفها فنًّا حديثاً من فنون الأدب، وذلك من باب الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره(٢).

والملاحظ أن أكثر الدراسات النقدية الحديثة تجمع على فنيّة السيرة وأدبيّتها؛ فيعدونها جنساً أدبياً وفناً من فنون الأدب، "يسجّل فيه الكاتب بوعي وفنيّة تاريخ حياة إنسان، ويعيد بعث صورة شخصية، ملتزماً الصدق والحقيقة في ثوب أدبيّ"(٣)، فالسيرة الأدبية الفنية على هذا النحو " فنٌ وعلمٌ وصناعةٌ، وحديثٌ صادقٌ عن النفس أو الغير"(٤).

وخلاصة القول: "إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء"(٥).

ثالثاً: بين الترجمة والسيرة.

أكثر الباحثين لا يرى فرقاً بن اللفظتين، ويرى أن لفظة (سيرة) أقدم استعمالا في التراث العربي من لفظة (ترجمة)، التي دخلت إلى العربية من الآرامية في عصور متأخرة، وأن القدماء لم يفرقوا بين اللفظتين في الاستعمال، فكانوا يستخدمون كلًّا منهما

(١) الفنون الأدبية وأعلامها لأنيس المقدسي ص ٥٤٧ – ط دار الكتاب اللبناني – ١٩٦٣م.

(٢) ينظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه لسيد قطب ص ٩١ – ط دار الفكر العربي – الثالثة – ١٩٩٦م.

(٣) السيرة الذاتية في التراث للدكتور/ شوقي المعاملي ص ١١ – ط دار مكتبة النهضة – ١٩٨٩م.

(٤) طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية للدكتورة رشيدة مهران ص ١٩ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – الأولى – ١٩٧٩م.

(٥) فن السيرة للدكتور/ إحسان عباس ص ٩٠ – ط دار الثقافة – بيروت – لبنان – الرابعة – ١٩٧٨م.

بمعنى حياة الشخص بصفة عامة. ونهج نهجهم في عدم التفرقة بين اللفظتين كثير من النقاد والباحثين المحدثين، فالاصطلاح المعاصر يستخدم كلا منهما مرادفاً للآخر(١).

رابعاً: أنواع السيرة إجمالا.

ارتضى أكثر النقاد تقسيم السيرة إلى: (عامة) تتناول أشخاصاً كثيرين، و(خاصة) تتناول حياة شخص واحد. ثم قسموا (السيرة الخاصة) إلى: (ذاتية) تدور على حياة كاتبها – ويأتي الحديث عنها مفصلا –. و(موضوعية، أو غيرية) تدور على شخص آخر. والكاتب في السيرة الغيرية يبحث عن الحقيقة في حياة "إنسان فذّ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلّفه في جيله"(٢).

والسيرة الغيرية أسبق ظهوراً من السيرة الذاتية، وهي تتناول حياة المشاهير والأفذاذ والعباقرة سواء مَنْ عاشوا في الزمن الماضي أو في الزمن الحاضر.

خامساً: السيرة الذاتية الفنية.

وجد دارسو السيرة الذاتية الفنية صعوبة في إيجاد تعريف دقيق لها؛ ولعل هذا راجع إلى تلاقي أدب السيرة الذاتية الفنية مع غيره من الفنون الأدبية التي يستعير منها بعض سماته كالمقال والرحلة والرواية، فجاءت السيرة الذاتية الفنية مزيجاً من ذلك في محاولة للتعبير عن الذات ورحلة الحياة في تجربة ذاتية حيّة عامرة بالحيوية ونابضة بالقوة، لذلك لا يعد ما ورد من تعريفات للسيرة الذاتية تعريفاً دقيقاً جامعاً مانعاً، مثل ما ورد بأن "التراجم الذاتية أو الشخصية: هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته، وشبابه، وكهولته، وما

(١) ينظر: السيرة تاريخ وفن للدكتور/ ماهر حسن فهمي _ ط مكتبة النهضة المصرية _ الأولى _ ١٩٧٠م ، والترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث للدكتور/ يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ٣١ _ ط دار إحياء التراث العربي _ بيروت لبنان _ ١٩٧٥م ، وفن التحرير العربي: ضوابطه وأنماطه لمحمد صالح الشنطي ص ٢١٥ : ٢١٦ – ط دار الأندلس للنشر والتوزيع _ السعودية _ حائل _ الخامسة ١٤٢٢هـ ـــ ٢٠٠١م.

(٢) التاريخ والسير لحسين فوزي النجار ص١٤ – ط دار القلم – ١٩٦٤م.

جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته"[١]. أو ما جاء بأن: "السيرة الذاتية تعني حرفياً ترجمة حياة إنسان كما يراها هو"[٢].

فهذان التعريفان – وما شاكلهما – يدوران حول أن السيرة الذاتية نوع خاص من السير يسرد فيها الكاتب حياته بقلمه، ولكن "ليس الترجمة الذاتية حديثاً ساذجاً عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر"[٣]، كما أنها ليست مجموعة من الأحداث والأخبار المتناثرة؛ إذ لابد أن تتسم بما تتسم به السيرة عامة بأن يكون لها خطة أو رسم أو بناء.

وقد حاول الدكتور/ يحيى إبراهيم عبد الدايم في كتابه: (الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث) أن يضع تعريفاً للسيرة الذاتية الفنيّة مراعياً فيه وجود بناء مرسوم واضح، وأسلوب أدبيّ فنيّ، فقال: "والترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح كما سلف، وفي أسلوب أدبيّ قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً عن تاريخه الشخصيّ، على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبيّ، وبثّ الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حواره، مستعيناً بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله؛ حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصور، خاصة إذا كان يكتب ترجمته في قالب روائيّ"[٤].

يلاحظ في تعريف الدكتور/ يحيى إبراهيم عبد الدايم الإسهاب والإطناب في محاولته إيجاد تعريف يحوي سمات وخصائص السيرة الذاتية الفنية، فهو وإن كان وقف على أهم سمات السيرة الذاتية الفنية وهي: البناء الفني، والأسلوب الأدبي، والإثارة، والخيال المقيد، إلا أنه لم يصرّح بالصدق ولا بالهدف من كتابتها أو الدافع، أو أن ما يكتب سيرة ذاتية.

---

(١) التراجم والسير لمحمد عبد الغني حسن ص٢٣ – ط دار المعارف – الثالثة – ١٩٨٧م.

(٢) أدب السيرة الذاتية للدكتور/ عبد العزيز شرف ص٢٧– ط دار نوبار للطباعة – مصر – ١٩٩٢م.

(٣) فن السيرة للدكتور/ إحسان عباس ص ٩٨:٩٩.

(٤) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث للدكتور/ يحيى ابراهيم عبد الدايم ص١٠.

إذن هذا التعريف يتضح فيه الإسهاب والإطناب بشكل كبير، وعدم اشتماله على كل السمات المميزة، وهذا لا يتفق مع ما هو متعارف عليه بأن التعاريف للمصطلحات تكون موجزة وجامعة ومانعة.

وقد حاولت الدكتورة/ تهاني عبد الفتاح شاكر وضع تعريف استخلصته من تعاريف سابقة، وضمنته أبرز السمات الفنية للسيرة الذاتية، فذكرت أن السيرة الذاتية هي: "حكي استعادي نثري، يتسم بالتماسك والتسلسل في سرد الأحداث، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة، ويشترط فيه أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما يكتبه هو سيرة ذاتية"(١).

واضح أيضاً الإطناب في التعريف، وهو تعريف يشترط أن تكون السيرة الذاتية نثراً، وأن يصرح الكاتب بأن عمله سيرة ذاتية، وأن يتسم عمله بالتماسك والتسلسل لتخرج منها المذكرات(٢) واليوميات(٣)، التي تهتم بشكل متقطع غير مترابط ولا متسلسل بالأحداث والبيئة والمجتمع أكثر من تصوير ذات صاحب السيرة.

ويلاحظ كذلك أن التعريف لم يصرّح بالتزام الصدق في هذا الحكي الاستعادي، ولا بالأسلوب الأدبي كما ذكر الدكتور/ يحيى إبراهيم عبد الدايم.

ومما سبق يمكن استخلاص تعريف للسيرة الذاتية الفنية بأنها: تعبيرٌ فنيٌّ صادقٌ مثيرٌ في بناءٍ فنيٍّ يختاره الكاتب لينقل صورةً لحياته ومكونات شخصيته على نحو يحقق هدفه من سرد سيرته.

---

(١) السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا لتهاني عبد الفتاح شاكر ص١٦ – ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الأولى – ٢٠٠٢م.

(٢) المذكرات هي: "سرد كتابي لأحداث جرت خلال حياة المؤلف وكان له فيها دور، وتختلف عن السيرة الذاتية بأنها تخص العصر وشئونه بعناية كبرى".(المعجم الأدبي لجبور عبد النور ص ٢٤٦ – ط دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – الثانية – ١٩٨٤م).

(٣) اليوميات هي: "لون أدبي يدون فيه الأديب أحداثاً وانطباعات ومشاهدات، ويرتبها على شكل مذكرات يومية أو شبه يومية".(المعجم المفصل في الأدب ٨٩٢/٢).

ولعل هذا التعريف يحاول الاقتراب من معالم التعريف الجامع المانع، فهو يتضمن[1]:

١- أداة الإبداع (التعبير الفني والبناء الفني).

٢- ضابط الإبداع (أن يكون صادقاً مثيراً).

٣- مجال الإبداع (حياة الكاتب ومكونات شخصيته).

٤- غاية الإبداع (الهدف من سرد السيرة الذاتية).

وقد انتخب التعريف المفردات الآتية:

(التعبير الفني) ؛ لأنه ليس الحديث الساذج والثرثرة التافهة تعد أدباً، بل الأسلوب الأدبي هو المعتبر.

(صادق) ؛ لأن الصدق أهم ما يميز السيرة الذاتية عن غيرها من الأجناس كالرواية مثلا، ولهذا كان الخيال في السيرة الذاتية مقيداً.

(مثير) ؛ لأن فن السيرة يقوم على الإثارة، إثارة العقل بتوثيق الحقائق التاريخية، وإثارة الخيال بإعمال وسائل التصوير الأدبي والفني لبعث الحيوية في تلك الحقائق والوقائع، وهذه الإثارة هي التي تحقق التفاعل والمشاركة الوجدانية مع الكاتب.

(بناء فني يختاره الكاتب) ؛ لأنه لا يمكن أن تحصر السيرة الذاتية في شكل فني واحد لا يمكن تجاوزه.

(لينقل صورة لحياته ومكونات شخصيته) ؛ لأن الأصل في السيرة الذاتية أن تعرّف بحياة كاتبها وشخصيته.

(على نحو يحقق هدفه من سرد سيرته) ؛ لأن كل كاتب حرّ في انتخاب الأحداث التي مرت به، فهو لا يمكن أن يسرد كل تفاصيل حياته، وإنما يقتصر على ما يحقق هدفه من كتابة سيرته للقراء؛ فما كتبها إلا لغاية، وما يعرضه ينبغي أن يحققها.

---

(١) أوحى إليّ بمحاور التعريف الدقيق (أداة الإبداع – ضابط الإبداع – مجال الإبداع – غاية الإبداع) بحث كنت قرأته عن الأدب الإسلامي في رحاب الأزهر الشريف قراءة تاريخية تحليلية للأستاذ الدكتور/ صبري فوزي عبدالله أبو حسين، والبحث منشور ضمن بحوث المؤتمر العلمي الدولي الثالث المنعقد في كلية اللغة العربية بالزقازيق – جامعة الأزهر الشريف عام ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.

سادساً: السمات الفنية للسيرة الذاتية.

إذا كانت السيرة الذاتية تتلاقى في بعض خصائصها الأسلوبية وسماتها الفنية مع بعض الفنون الأدبية قريبة الشبه منها، إلا أن ذلك لا يمنع أن تكون للسيرة الذاتية الفنية بعض السمات الفنية التي تميزها عن بقية الفنون النثرية قريبة الشبه بها؛ لذلك كان من أهم خصائص السيرة الذاتية الفنية ما يأتي:

أولاً : دلالة السيرة الذاتية على شخصية كاتبها وميوله وأفكاره.

كاتب السيرة الذاتية يعرض على المتلقي نفسه، فيلزم أن تظهر أفكاره وميوله وشخصيته فيما يعرضه من أحداث، وهذا العرض للأحداث والمواقف التي يستشف منها وفيها المتلقي شخصية كاتبها وميوله وأفكاره يقتضي الانتخاب، إذ "السيرة الذاتية – كنص أدبي يكتبه صاحبها عن نفسه – ليست مجرد تسجيل حوادث وأخبار، وليست مجرد سرد لأعمال الكاتب وآثاره، ولكنها عمل فني ينتقي وينظم ويوازن، على النحو الذي يصور ذلك جميعا، في عمل أدبي يترك أثره المنشود لدى المتلقي"(١).

وبتمام السيرة على النحو الذي اختاره كاتبها لأحداث حياته الماضية وما مر به تتكون لدى المتلقي صورة لشخصية كاتبها وميوله وأفكاره.

ثانياً: الصدق والصراحة والأمانة والموضوعية.

لكي تتكون لدى المتلقي صورة حقيقية عن كاتب السيرة الذاتية وميوله وأفكاره لابد أن يتحرى كاتبها الصدق والأمانة في عرض الأحداث والمواقف، ويلتزم الموضوعية في عدم تسخير الأحداث والمواقف لإثبات مجد، أو محو مواقف أو أحداث لها دلالتها على شخصيته وميوله وأفكاره، "فالسيرة الذاتية إذن ليست فناً ميسوراً هينًا، بل هي من الفنون التي تقتضي من كاتبها مشقة أن يتجرد من نفسه ويتخلص من أهوائه ونزعاته الخاصة"(٢).

ولكن ينبغي الأخذ في الاعتبار بأن الصدق والصراحة التامة في كتابة السيرة الذاتية "أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية أمر نسبي مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها؛ ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية (محاولة) لا أمراً متحققاً"(٣)، إذ ربما

(١) أدب السيرة الذاتية ص٢١ .

(٢) السابق ص١٣.

(٣) فن السيرة ص١١٣.

كان السبب في عدم تحقق الصدق التام في السيرة الذاتية ضعف الذاكرة، فمن المؤكد "أن الذاكرة لا تنسى فقط ولكنها قد تخدع أيضا، فتخلط الأسماء والأزمان والأماكن"(١). أيضا من أسباب عدم تحقق الصدق التام أن بعض المواقف والأحداث تتصل بأطراف أخرى قد تمسهم وتقدح فيهم. أو يكون عدم تحقق الصدق التام راجع إلى طبيعة النفس الإنسانية التي تأبى أن تخطّ بيدها ما يقدح فيها، أو أن تكون أدق دخائل النفس مسرحاً لكلّ رائح وغادٍ. وليس أدلّ على ذلك من قول أحمد أمين في سيرته: "على المرء أن يبذل جهده في تعرّف الحق وتحرّي الصدق ... ولا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعَها، وعلى ذلك وضعت الكتاب، ولم أذكر فيه كلّ الحق، ولكنني لم أذكر فيه أيضاً إلا الحق"(٢).

وتأسيساً على ما سبق، فإن كاتب السيرة الذاتية ينتخب ويختار ما يعينه على إبراز حياته بصدق وأمانة وموضوعية، فالصدق والأمانة لا تعني التعري النفسي والمكاشفة الفاضحة والاعتراف بالرذائل، وإنما الصدق والأمانة تعني أن يجتهد كاتب السيرة الذاتية في أن تكون سيرته بمثابة وثيقة تاريخية حقيقية لحياته وشخصيته.

ثالثاً: البناء الفني.

يعد من "أخص ملامح الترجمة الذاتية التي تجعلها تنتهي إلى الفنون الأدبية أن يكون لها بناء مرسوم واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن ينحي جانباً كثيراً من التفصيلات والدقائق التي استعادتها ذاكرته، وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون لديه من يوميات ووسائل ومدونات تعينه على تمثل الحقيقة الماضية"(٣).

وهذه الطريقة في الاختيار هي البناء الفني الذي يرشد الكاتب إلى ما يُثبت وما يُسقط من أحداث ومواقف استعادتها الذاكرة وقت الكتابة.

أيضا على كاتب السيرة الذاتية "أن يصور أثر الأحداث والمواقف في نفسه، وما نتج عنها من صراع داخلي وخارجي وتطور في شخصيته"(٤)؛ فكاتب السيرة الذاتية لا يستعيد الماضي وحسب وإنما "يستكشف الأشياء والأشخاص من جديد، ويعيد بناء

---

(١) السيرة تاريخ وفن ص ٢٤٧.

(٢) حياتي لأحمد أمين ص٨ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٣م.

(٣) الترجمة الذاتية ص٤.

(٤) السيرة الذاتية في الأدب العربي ص٢٤.

الأحداث والمواقف بناء له جذوره في الواقع، فهو لا يخلق فنه خلقاً، وإنما يعيد تشكيله ويبنيه بناء فنيًّا يتدخل فيه الخيال، ولكن بقدر معلوم"[١].

إذن فكاتب السيرة الذاتية يعيد حياته في بناء متماسك عماده الوحدة والاتساق الفني، وهو يختار القالب الفني الذي يناسبه، فليس للسيرة الذاتية بناء فني واحد تنحصر فيه.

ويلاحظ أنه كلما كانت السيرة الذاتية أقرب إلى البناء الروائي كانت أشد تأثيراً في نفس المتلقي؛ لأن السيرة في حقيقتها قصة تستنطق الواقع وتستلهم الحقيقة، ودور الخيال فيها قاصر على الترتيب، واستحضار الماضي، وبعث الحياة في الشخصيات، بشرط عدم تزييف الحقائق أو اختلاق وقائع.

رابعاً: جمال الأسلوب والقدرة على إحياء الماضي ودلالته على كاتبه.

يعد هذا من أهم خصائص السيرة الذاتية؛ إذ يجب أن يتحقق فيها عنصران أساسيان هما: التجربة الشعورية، والعبارة الموحية عن هذه التجربة، وهو ما يعرف بالصدق الفني الذي يستلزم إيماناً بالتجربة كما يراها كاتب السيرة الذاتية[٢]، فما السيرة الذاتية إلا قصة حياة تبعث من جديد بأحداثها ومواقفها، فلابد لكاتب السيرة أن يكون ذا ذوق سليم متمكناً من فنه، وهذا التمكن لا يقتصر على النشاطين الذهني والعلمي فقط، بل يستند أيضاً إلى النشاط اللغوي باعتباره فنًّا أدبيًّا في المحل الأول[٣].

وأصالة الكاتب في التعبير مرهونة بقدرته على بعث الماضي وتصوير الأحداث والشخصيات، وقد لاحظ بعض الباحثين أن "هناك اتفاقاً بين الأسلوب وبين الشخصية وتطابقاً، يجعلان الأسلوب يدل على ملامح الشخصية الروحية والفكرية للكاتب ويعكسها لنا"[٤].

وهذه ملاحظة دقيقة، وربما لهذا قيل: الأسلوب هو الرجل.

---

(١) أساليب التعبير الأدبي لإبراهيم السعافين وآخرون ص١٥٩ – ط دار الشروق – عمان – الأولى – ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: أدب السيرة الذاتية ص ٢٣.

(٣) ينظر: السابق ص٢.

(٤) الترجمة الذاتية ص١٥٣.

خامساً: تصوير حياة كاتبها.

على كاتب السيرة الذاتية أن يعرض مراحل حياته منذ الطفولة ماضياً في تقديم مراحل عمره المتعاقبة، حتى يطلعنا على أطوار شخصيته في تدرج وترابط ونمو وأن يعرض للمواقف الوجدانية التي تعبر عن الانفعالات وكذا المؤثرات في شخصيته سواء الموروثة عن الآباء، أو المكتسبة من البيئة، ويتجنب التركيز على جانب في شخصيته دون آخر، فلا يلقي الضوء على محاسنه وصفاته المضيئة دون التعرض للجوانب الخافتة، فالجانبان يعكسان الشخصية ويعطيان صورة مكتملة(١).

سادساً: الخيال المقيد.

لأن كاتب السيرة الذاتية يسرد الواقع ويروي الحقيقة؛ فإن دور الخيال فيها محدود بقدر تمثل الحياة وتصويرها، وترتيب الأحداث واختيارها وربطها بعضها ببعض في بناء فني محكم، وقيمة الخيال هنا مرهونة ببراعة الكاتب في إحداث التشويق وإثارة القارئ وقدرته على تصوير الأحداث والشخصيات وبعث الحياة فيها من جديد(٢).

سابعاً: التصريح بأن العمل سيرة ذاتية.

تصريح الكاتب مباشرة أو إيماء بأن ما يعرضه سيرة ذاتية يدفع الظن بأن ما يقدمه عمل تخييلي، خاصة إذا كان الكاتب لم يذكر اسم الشخصية الحقيقي، وقدّمه في قالب روائي، فلا يستطيع المتلقي الجزم بأن هذا العمل سيرة ذاتية أم رواية فنية عمادها الخيال لا الحقيقة.

ولتجنب ذلك يستحسن أن يصرح كاتب السيرة بنوع الجنس الأديب الذي يقدمه.

وهذا الحديث يقود إلى تصريح كاتب السيرة بغايته من كتابة سيرته، هل يستحسن التصريح بها أم لا؟.

هناك من يرى أن التصريح بالغاية مستحب؛ لأن ذلك يحدد معالم الطريق أمامه، ويعينه على الحذف والإثبات في الاطار الذي يوضح هدفه، ويرسم عن طريقه صورة لعالمه الخاص، ويختار في ضوئه بنيان ترجمته الذاتية(٣).

---

(١) ينظر: الترجمة الذاتية ص١٢٧ وما بعدها.

(٢) يراجع : السيرة الذاتية في الأدب العربي ص ٢٣ وما بعدها ، بتصرف.

(٣) ينظر: الترجمة الذاتية ص١١٦.

وهناك من يرى أن عدم الإفصاح مستحسن، فهو يرى أن "وراء كل سيرة هذا الدافع النفسي أو ذاك، وغاية مرصودة لا يعلن عنها صاحبها؛ لأنها كالصورة الكلية للعمل تظل غائمة حتى تكتمل السيرة"(١).

وسواء أفصح كاتب السيرة الذاتية عن غايته أم لم يفصح، فإنها تظل قائمة في نفسه، تتضح في عمله، فما أقدم على كتابة سيرته إلا لغاية وهدف يشعر به ويلح عليه.

كانت هذه أهم سمات السيرة الذاتية وملامحها الفنية، على أن تحققها جميعا ليس حتميا، فلكل أديب ذاتيته وفرديته وطريقته التي تمثله، وتحقق شخصيته الأدبية المتفردة.

(١) فن السيرة ص١٠٨.

المبحث الأول

السيرة الذاتية لعباس خضر

دراسة موضوعية

ويشتمل على الموضوعات التي تضمنتها سيرة عباس خضر الذاتية، وهي:

- أولاً: المراحل العمرية.
- ثانياً : الحياة التعليمية.
- ثالثاً : الحياة العملية.
- رابعاً : الحياة الاجتماعية.
- خامساً : دهاليز الحياة الأدبية.
- سادساً : المؤثرات في شخصيته.

المبحث الأول: السيرة الذاتية لعباس خضر دراسة موضوعية[١]

أولا: المراحل العمرية.

كاتب السيرة الذاتية عادة يهتم بعرض مراحل عمره ورحلته في الحياة، وكلما كتب الكاتب سيرته في مرحلة عمرية متأخرة كان تناوله لفترات زمنية متباعدة أرحب وأحفل؛ إذ تعد "أفضل الترجمات الذاتية هي تلك التي كتبها أصحابها في سن متأخرة بعد اكتمال خبراتهم وتجاربهم، واكتمال نضاجهم العقلي، وبلوغ شخصياتهم قمة التطور"[٢].

ومن خلال ما يسرده الكاتب من ذكريات يمكن الوقوف على المؤثرات في شخصيته، وذلك لما تبوح به تلك الذكريات من قيم نفسية يتجلى أثرها في السلوك فيما بعد من رحلة الحياة.

وعباس خضر سرد في سيرته الذاتية مراحل عمره المتعاقبة، كان ذلك في كتابيه: (خطى مشيناها ، وذكرياتي الأدبية) فرسم لنا في ذكرياته خطوات حياته،

---

(١) الموضوعية هنا يقصد بها الموضوعات التي تناولها عباس خضر بالسرد في سيرته، على أن الموضوعية التي هي الحيادية متحققة أيضا، فهي تعرض ما ذُكر من غير تحريف، وتستنطق أثره في نفس كاتبها وشخصيته بحيادية من غير هوى في توظيف المختارات أو إغفال ما من شأنه أن يقود إلى نتائج لا ينشدها الباحث ، وإنما النص هو الذي ينطق – في ضوء تحليله – بالنتيجة.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي ص١٥٢.

وحكى في خطاه ذكرياته طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً؛ إذ كتب سيرته في أخريات حياته بعد ما عُمّر حوالي سبعين عاماً.

وأول ما يعرض علينا من ذكريات الطفولة هو أثر (أحمد أفندي) أستاذ والده، وقد كانت القرية كلها تذكره بالعرفان والفضل، ولم يكن من أبناء القرية، بل قدم إليها وأقام في دار والده شهوراً ومضى بعدما ترك أثراً لا يمحى من ذاكرته وذاكرة القرية كلها، "غرس ما غرس ومضى .. إلى أين؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين ذهب؟ ومن أهله؟..."(١)، كل ذلك لم يكن عقل الصبي حينها يشغله أن يبحث له عن إجابات، ولا يهمه الآن – وقت كتابة السيرة – أن يعرف، المهم هو أثر (أحمد أفندي) في نفسه وهو حب العلم وتقدير العلماء، ذلك "هو الأثر الباقي في نفوس التلاميذ وعقولهم، وهو السيرة التي بقي عطرها لكي يعبق بعد ستين أو سبعين سنة بين هذه السطور"(٢).

والمهم كذلك هو أنواع اللعب التي كان يمارسها الطفل (عباس) مع أترابه في فناء المدرسة التي لم تتم لأن صاحب فكرتها (أحمد أفندي) رحل، تلك الألعاب التي صورها وكأنها رأى عين نسمع أصوات الأطفال ونشاهدهم يمرحون فلا يكلّون، ولم يكن الطفل (عباس) يكف عن اللعب مما جعله نحيفاً، وقد كانت نحافته تعينه على الفوز، ولكن هذا لم يك يعجب والدته، يقول: "كانت والدتي تؤنبني على كثرة العدو والحركة، وتنصحني بأن أهدأ لكي يجرى الأكل في جسمي وأسمن .. ولم أهدأ حتى اليوم، ولم أسمن"(٣).

ولكي يهدأ ألحقه والده بكُتّاب القرية، فكان أول ما وقعت عليه عيناه "صبي معلق من رجليه، قدماه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، وقد التوى على الرجلين حبل مشدود إلى عصا غليظة أمسك بطرفيها صبيّان من كبار الصبية في الكُتّاب، والعصا ذات الحبل هي ما يسمى (الفلقة)، ورجل متجهم الوجه ينهال على قدمي الصبي بعصا، والولد يصرخ: حرمت يا سيدنا"(٤).

---

(١) خطى مشيناها لعباس خضر ص٥ – ط دار المعارف – مصر – ١٩٧٧م.

(٢) السابق ص١١.

(٣) السابق ص٧.

(٤) السابق ص١٣.

كان لهذا المنظر أثره السيء في نفس وعقل الطفل، فانطفأت جذوة الفهم والنباهة فيه بعدما كان والده يفتخر به لذكائه، ثم لم يلبث أن انجلت تلك البلادة العارضة شيئاً فشيئاً مع الوقت وبفعل رِشاً كانت تقدمها والدته للشيخ ليعمل عملاً كرقية للطفل المحسود، فما تبلّد إلا لعين أصابته من كثرة حديث والده عن ذكائه أمام الناس. هكذا كانت تعتقد الأم.

استفاض عباس خضر في الحديث عن مرحلة الكُتّاب في القرية وكُتّاب الشيخ ونيس في مدينة الفيوم، فوصف المكان والشيخ في كلٍّ، وسرد بعض الأحداث والذكريات، وكلها لا تبعد عن قوله: "كان كتاب سيدنا مهد البؤس بالنسبة لي في سنوات حياتي الأولى، في الطفولة وما بعدها"(١).

ثم كانت النقلة الكبرى في التحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة وعمره أربعة عشر عاماً، عالَم كبير مذهل له(٢)، كان الأزهر في هذه المرحلة يمثل له "ورداً صافياً للعلم"(٣)، فأقبل ينهل من علمه بشغف، فاجتاز القسم الأولى بتفوق، ولكن في القسم الثانوي لم يكن كذلك؛ إذ انشغل بالكتابة والعمل في الصحف والمجلات، وتملكه الزهو لذلك، حتى طبع اسمه في "بطاقة (كارت) هكذا: عباس حسان خضر محمد سالم – طالب في الجامعة الأزهرية الكبرى"(٤)، ولم تكن الجامعة وقتها قد انشئت في الأزهر، ولا هو بلغ سن الجامعة، ولكنه زهو الحِدْثان الأغرار وتفخيم الذات، ولم يلبث أن أهمل الدراسة بالأزهر رغبة في العمل بالصحافة وطلباً للرزق لشدة عَوَزه وفقره، وهو الأمر ذاته الذي دفعه إلى الالتحاق بدار العلوم؛ لأن العشرة الأوائل فيها كلٌّ منهم يتقاضى جنيهاً في الشهر، وكان الجنيه إذ ذاك جنيها بحق، وجميع الطلبة يتناولون وجبة غذاء جيدة يومياً، وتصرف لهم الكتب والكراسات وباقي الأدوات بالمجان، والمتخرج يعين مدرساً في الدرجة السادسة ويتقاضى مرتباً قدره اثنا عشر جنيهاً في الشهر"(٥).

---

(١) خطى مشيناها ص٣١.

(٢) ينظر: السابق ص٦٩.

(٣) السابق ٩٧.

(٤) ذكرياتي الأديبة لعباس خضر ص٧١ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – ٢٠٠٦م.

(٥) خطى مشيناها ص٢٠٨.

وفي هذه الفترة – فترة الشباب– أفاض عباس خضر في الحديث عن فقره وشدة عوزه، وكذلك عن تجاربه العاطفية، فراح يبوح في صراحة شديدة دون تحرج بالكثير من الأسرار عن هاتين الناحيتين.

فأما تجاربه العاطفية فكانت من طرف واحد، ولأنها لم تخرج عن حيز ذاته وأحاديث نفسه، فقد أفضى فشله في جميعها إلى أن تتحول فكرة الحب عنده إلى رمز أو حب عذري، "إلى حب للحب .. فلم تكن له غاية إلا ذاته"(١).

ويرى عباس خضر أن عدم توفيقه في علاقاته العاطفية – أو مشاريع علاقاته – كان بسبب نشأته الريفية التي لا تحسن الحديث عن المشاعر والتغزل اللطيف، يقول: "ولم أكن موفقاً في علاقاتي مع البنات في القاهرة، ربما لأني كنت فلاحاً (لخمة) لا أحسن الغزل، أو لا أعرف أسلوبه القاهري، كنت أحدث المرأة ورأسي منكس أو مستدير عنها كما تعودنا في الريف، ولم يكن ذلك في الحقيقة عن تعفف"(٢).

وأما فقره وعَوَزه فكان حديثه عنه يكاد يملأ سيرته ويتردد صداه في جُلّ فصولها، وكأن له من اسمه نصيباً وافراً، فهو (عباس) وحياته بؤس وكفاح، يقول: "ظللت كذلك حتى انهيت دراستي بدار العلوم .. نحو عشر سنين لا أزعم أنها كانت بؤساً أو حرماناً كلها، فلم تخل من متع مختلفة: مادية وروحية، ولكن هذه المتع كانت كالبرق الخاطف وسط ظلام دامس"(٣).

ويقول أيضاً: "كل متعة نلتها في تلك الحياة كانت لذيذة؛ لأني انتزعتها من بين براثن الأسد .. حتى (عباس) قاومته فصرت إلى ضده (بسام)، أو قل: إن حياتي صراع بين الاثنين: عباس وبسام"(٤).

وهكذا كان فقره أحد أهم العوامل التي صرفته عن الأزهر إلى دار العلوم، وخيب أمل والده فيه، ذلك الوالد الذي كان يعد ولديه: عباس وأخوه الأكبر ليكونا عالمين كبيرين في الأزهر، بل ليكون الأكبر شيخاً للأزهر، والأصغر (عباس) مفتياً أو

(١) خطى مشيناها ص٢٧.
(٢) ذكرياتي الأدبي ص١٠٧.
(٣) خطى مشيناها ص١٥٢.
(٤) السابق ص٢٣٨.

قاضيًّا شرعيًّا، هكذا كان يطمح الأب ويأمل في ولديه[١]، ولكن خيّب الولدان أمله وضيّعا حلمه.

وهكذا شكّل الفقر في نفس عباس عقدة، صرح بها قائلا: "نشأت في نفسي عقدة، لعلها عقدة الفقر المدقع، كنت أشعر أحياناً بالضآلة في مجالس الكبار، كبار الأدباء، كبار الموظفين، ومن أشبه .. صوتي لا يكاد يبين، والسكوت ملاذي، ألتفت في أحيان كثيرة إلى أن بي داء السكوت في المجالس، وليتني أحسن الاستماع، فإني أسرح ولا أنتبه لما يقال، فكنت أعالج هذا الداء بأن أقسر نفسي على الكلام قسراً ولو بدون فائدة، وأجتهد في رفع نبرات الصوت وتقويتها .. ولم يكن ذلك عن ضعف أو جبن، وإنما كنت أرى كأني آت من عالم غير عالمهم، وخاصة عندما أرى لهم قدرة مالية لا تتوافر لي"[٢].

اختار عباس خضر الطريق الآمن ليتخلص من داء الفقر الذي يلاحقه ويلازمه، فالتحق بدار العلوم، وبعد التخرج عمل بالتدريس، وتزوج وأنجب خمساً: بنتين وثلاثة أولاد، وتنقل في العمل بالتدريس بين القاهرة وقنا والسودان، وكان خلال هذه الفترة قد انقطع عن مواصلة النتاج الأدبي والكتابة الصحفية أو كاد، وشكى من مرض ارتفاع ضغط الدم، وسمى تلك الفترة بـــ (الكبت الأدبي) إذ انشغل بالتدريس والعمل عن الكتابة الحرة والإبداع والقراءة أيضاً؛ يقول: "لأن الزوجة العزيزة غلبتني بالعيال، وأنا أجاهد كي أغلبها بالمال"[٣]، ويتابع قائلا: "وقد حاولت أن أروض نفسي على الرضا بالحياة العادية: أعمل للحصول على الرزق، وأنجب الأولاد، وآكل لأعيش أو أعيش لآكل .. واستمر ذلك زمنا"[٤] ، إلى أن حدث له حادث غير رتابة حياته؛ إذ كسرت رجله في السودان فاضطر إلى المكوث في الفندق لا يريمه، فأتاح له ذلك فرصة للتأمل والقراءة واختبار الناس وغربلة الأصدقاء، وساعده على ذلك أن فترة المرض طالت بسبب خطأ في جبر الكسر، ولما كان عبور أكتوبر ١٩٧٣م أعاد النصر الصحة إلى

(١) ينظر: خطى مشيناها ص٩٤.

(٢) السابق ص١٨٠.

(٣) خطى مشيناها ص٢٣٧.

(٤) السابق ص٢٦٦.

نفسه، فترك التدريس، وعمل بإدارة الثقافة، وتفرغ تماماً للقراءة والكتابة، وبدأت الدنيا تبتسم له رغداً بالمال، وإمتاعًا نفسيًّا بالإبداع والعمل الذي يحبه وهو القراءة والكتابة.

فواصل الكتابة والنشر ، فـ "كم للنشر من سحر .. وما زال يسحرنا حتى اليوم"(١).

ويتابع الحديث عن هذه المرحلة قائلا: "كان ذلك رغداً، وأحسست للمرة الثانية – كانت الأولى في السودان– أني أب يفيض على أولاده في سعة وسعادة، وهو شعور يعرف متعته الأب؛ إذ يحقق أبوته بمقدرته على إسعاد أولاده.

وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها"(٢).

كان هذا آخر ما سطره عن مراحل حياته وقت كتابة سيرته، وهي تمثل لحظة رضا وقناعة.

ثانيا : الحياة التعليمية .

كما يهتم كاتب السيرة بالجوانب الحياتية في سيرته، يهتم أيضاً بالحياة التعليمية؛ لأنها الوسيلة الأهم في مسيرة تحقيق الذات واكتساب الخبرات الثقافية المتنامية.

وأول مراحل التعليم تكون في الطفولة، والطفولة عند عباس خضر لم تكن فقط لعب ولهو ومرح، وإنما أيضًا أول خطوات المعرفة والالتزام.

تلقى عباس خضر مبادئ القراءة والكتابة على يد والده في المنزل طبقاً لما تعلمه من (أحمد أفندي)، كما لقنه بعض عبارات عقائدية، يقول: "وكان أبي يفخر ويعتز بي أمام الناس، ويطلب مني ترديد ما لقنني أو إحضار قلم وورقة وكتابة ما يملي عليّ. فعلا صيتي كطفل معجزة كما يقولون"(٣).

ثم ألحقه أبوه بكتاب القرية، ولم تك تلك الفترة محببة عند عباس خضر، فالشيخ متجهم وسمعته سيئة، علاوة على أثر الأيام الأولى له في الكتاب فـ(سيدنا) في الكتاب يضرب بقسوة، وقد رأى ذلك مع أول لحظة له في الكتاب، فظل الأيام الأولى شارد الذهن ولم يحفظ اللوح فناله مثلما رأى أول يوم، وليت أبوه أنصفه لما رآه يلج البيت

(١) ذكرياتي الأدبية ص١٠٧.

(٢) خطى مشيناها ٢٧٧.

(٣) خطى مشيناها ص١٤.

وهو لا يستطيع أن يثبت قدميه الحافيتين على الأرض، بل في صبيحة اليوم التالي دفع به إلى الكتاب وقال لسيدنا:

-اسمع .. أنت تكسر وأنا أداوي"[١].

قضى عباس خضر هذه المرحلة الأولى على مضض، ثم كانت الخطوة الثانية في الطريق الذي رسمه له أبوه هو وأخوه الأكبر؛ إذ كان يأمل أن يكون ولداه عالمين بالأزهر الشريف، لذا التحق عباس خضر بكتاب (الشيخ ونيس) في مدينة الفيوم لأن هذا الكتاب له صيت طيب، والشيخ ونيس رجل صالح عالم بالقراءات فقد طلب العلم بالأزهر الشريف زمناً، وكان كتّابه أشبه بمعهد للقراءات أو صورة مصغرة للحياة بالأزهر الشريف، "حتى المقيمين فيه كان يطلق عليهم لفظ المجاورين[٢] مثل طلبة الأزهر"[٣].

في تلك الفترة في كتاب الشيخ ونيس كانت تتجاذب الطفل نوازع متقابلة: سعادة، وشقاء خفي، فأما السعادة فكانت لأنه يتنقل بين القرية والمدينة ويطلع على دنيا جديدة، وأما الشيء الخفي الذي أشقاه - ولم يك يدري كنهه في حينه - هو رؤيته تلاميذ المدارس وهم بزيهم الأنيق (البدل) ويسمعهم وهم يتحدثون عما يتعلمونه من الحساب والجغرافيا والأناشيد، ويرطنون ببعض الكلمات الإنجليزية، فيراود الطفل هاتف: "لماذا لا أكون مثلهم؟"[٤].

ويتابع: "لم أكن أحس أني أتعلم .. نعم أحفظ سوراً من القرآن ولكن حتى هذه لا أفهمها، تعلمت القراءة والكتابة، نعم، ولكن ماذا أقرأ وماذا أكتب؟"[٥].

وكأن الله قد سمع خفقات قلبه بأمنيته، فها هو محمد ابن الشيخ ونيس قد حصل على الشهادة العالمية في الأزهر وأقبل يقيم مع والده ريثما يُعيّن في وظيفة، وفي تلك الأيام شرع يعلم الصبية في الكتّاب ومعهم عباس خضر النحو والفقه، فشعر الطفل بأنه سيتعلم.

---

(١) السابق ص١٦.

(٢) المجاورون: هم الطلبة الذين يدرسون في الأزهر، ويقيمون في أحد الأروقة الملحقة بالجامع الأزهر.

(٣) السابق ٣٦:٣٧.

(٤) السابق ص٤٠.

(٥) السابق ص٤٠.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد حمله أبوه على ترك كتّاب الشيخ ونيس وعاد إلى القرية يذهب إلى كتاب آخر غير الكتاب الأول الذي بدأ فيه طفلا.

يقول: "وشعرت شعور عزيز قول ذل .. كنت أتطلع إلى ما هو أحسن"(١).

ظل في كتاب القرية ليتم حفظ القرآن الكريم ويكون مؤهلا للالتحاق بالأزهر، وحتى يبلغ سن الرابعة عشر التي تؤهله للخطوة القادمة كان يطالع بعض كتب في الأدب الشعبي يقرؤها على رجل كسيح اسمه (عبد الجواد العاجز) وقد جذبه هذا العالَم وتملكته النشوة، يقول: "لو كنت إذ ذاك أعرف قولة (أرشميدس) عندما خطر له حل المسألة التي كانت تشغل فكره: (وجدتها) لرددت تلك الكلمة وأنا في سرور لا يقل إن لم يزد على سرور أرشميدس"(٢).

وقد ساعده على وجود وقت لذلك أن شيخ الكتاب هذه المرة كان ضريراً، فكان الصبي عباس خضر – وهو جالس أمام الشيخ يتلو – يضع المصحف في حجره ويقرأ منه والشيخ يظن أنه متقن، وفي الحقيقة كان يقرأ من المصحف، وهكذا ظل حتى (ختم) القرآن كله، فحمل إلى منزل (سيدنا) أردب من القمح جزاء حسناً له على تحفيظه القرآن، وهو في الواقع ما حفظه(٣).

وفي عام ١٩٢٤م وقد بلغ الطفل الرابعة عشر التحق بالأزهر الشريف بالقاهرة، وكانت تلك نقلة وأي نقلة في حياته، يقول: "منذ سنين وأنا عطشان كأني في صحراء لا ماء فيها .. وهأنذا أرتوي من موارد العلم المختلفة في مسجد (إبراهيم أغا) المتخذ كمدرسة للسنة الأولى من القسم الأولى للأزهر .. ما أعظم هذا"(٤).

ويتابع، "كان ذلك بالنسبة لي عالما جديدا مشوقا، أقبلت عليه بكل مشاعري وفكري ... كنت أصغى إلى شرح المدرس وأنا ألتهمه التهاماً"(٥).

جدّ الصبي واجتهد فكان ترتيبه يتردد بين الأول والثاني على رفاقه، وظل هكذا حتى حصل على الشهادة الأولية بتفوق، وانتقل إلى القسم الثانوي، والدراسة في هذه

(١) السابق ص٤٩.
(٢) خطى مشيناها ص٥٥.
(٣) ينظر: السابق ص٦٠.
(٤) السابق ص٦١
(٥) السابق ص٦٣.

المرحلة ليست في الجوامع المتفرقة بشارع الغورية، ولكنها الآن في قصر (علي باشا مبارك) بحي الحلمية الجديدة، ولهذا راق للطلبة أن يطلقوا عليه (مدرسة الحلمية الثانوية الأزهرية)؛ لأن الحال تغير وصاروا يجلسون على مقاعد خشبية ويدرسون علوماً حديثة بجوار العلوم الشرعية، وهو أمر قريب من المدارس النظامية.

وفي المرحلة الثانوية تطرق إليه الفتور في طلب العلم وانطفأت جذوة الحماس في تحصيله، فاجتاز السنة الأولى والثانية "بنجاح قريبة درجاته إلى الرسوب"(١)، وفي السنة الثالثة لم يدخل الامتحان، فرسب، وعُدّل نظام الدراسة في الأزهر فصار القسم الثانوي خمس سنوات بدلا من أربع(٢)، يقول: "فخسرت سنتين: واحدة بالإعادة، الثانية من فرق النظامين"(٣). ودفعه إلى الإهمال عوامل ثلاثة مجتمعة، أحدهما: الانشغال بالعمل في الصحافة، وثانيها: بدأ يتضجر من كلمة (مجاور) ويراها وصمة عار ملتصقة بالفقر وتذكره به، يقول: "كان شكلنا مميزاً، جلباب قروي، وعلى الرأس قلنسوة (طاقية فلاحي) أو عمامة. كنت أشعر بالغيظ وأكاد أتميز منه عندما أسمع الصبية من أبناء البلد في القاهرة يلقوننا بهذا النشيد:

يا مجاور .. عمتك دابت .. من السلطة والفول النابت"(٤).

وثالث هذه العوامل: شقاق اشتعل في أسرته، كانت نتيجته أن تزوج الأب من زنجية ليغيظ الأم، وأخوه الأكبر ترك التعليم بالأزهر وطلق زوجته، وأخوه الأصغر حبس من جراء شجار أفضى إلى قتل غير عمد، كل ذلك أدى إلى انقطاع المال عنه،

---

(١) خطى مشيناها ص١٤٩.

(٢) يشير إلى قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م ، وقد صدر هذا القانون في عهد المغفور له الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر (١٩٢٩-١٩٣٥م) وقد جعل هذا القانون التعليم في الأزهر أربع مراحل: ١- ابتدائي: ومدته أربع سنوات، ٢- ثانوي: ومدته خمس سنوات، ٣- عالٍ: ومدته أربع سنوات، ٤- التخصصي : وهو على نوعين تخصص في المهنة ، وتخصص في المادة. (ينظر: الأزهر في ألف عام تأليف الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي ، والأستاذ الدكتور/ علي علي صبح ٢١٢/٣: ٢١٣- ط المكتبة الأزهرية للتراث – الثالثة – ١٤٢٩ه ٢٠٠٩م).

(٣) خطى مشيناها ص١٥٠.

(٤) ذكرياتي الأدبية ص٣٧.

يقول: "لذلك عولت على أن أعتمد على نفسي وأكسب رزقي بعمل. فرحت أضطرب بين أمواج تعلو وتهبط، تقذفني مرة إلى الشارع، ثم تعيدني إلى الدراسة بالأزهر"(١).

وظل الحال كذلك حتى علم أن دار العلوم تعطي طلابها المتفوقين راتباً شهرياً، ووجبة يومياً، وبعد التخرج يضمن وظيفة مدرس، فالتحق بها، واجتاز امتحان القبول رغم أن دار العلوم كانت تشدد وتدقق على حفظ القرآن الكريم أكثر من الأزهر الشريف، كان قبوله فيها بفضل مقالات نشرها في مجلة الرسالة بعنوان: موسم الشعر في الميزان، وأيضًا بعض القصص القصيرة التي نشرها مما أذاع اسمه بين المهتمين بالأدب؛ لذا لما عرفه أعضاء اللجنة أجازوه من دون امتحان(٢).

وبعد لأي – بسبب العمل بالصحافة مع الدراسة – حصل على شهادة التدريس من دار العلوم عام ١٩٤٠م ، يقول: "كانت لحظة إعلان النتيجة ورؤية اسمى بين أسماء الناجحين من أسعد اللحظات في حياتي؛ لأني أحسست بالتحرر من رق الامتحان، هكذا كان شعوري لأني لا أحب أن أكون موضع اختبار"(٣).

وهكذا حصل على (شهادة التموين)(٤) – كما كان يروق له أن يسميها –، فالهدف هو الرزق المرجو، أما عالم الثقافة والأدب، فكانت (دار الكتب) هي الجامعة الحقيقية التي تخرج فيها(٥).

ثالثا : الحياة العملية.

كما كانت الحياة التعليمية محوراً مهمًّا سرده عباس خضر وأفاض فيه، كان أيضا حديثه عن حياته العملية وما شغله من أعمال متفش في ثنايا سيرته، فهي تمثل خطوات مهمة في الخطى التي مشاها في حياته، ولكن لم يكن حديثه عنها مسهبا كغيرها.

عمل عباس خضر بالصحافة صغيراً؛ حبًّا للنشر والشهرة، وطلبا للرزق، غير أن الأولى بدأت تثمر ثمارها منذ شبابه، أما الثانية فلم تكن كما طمح أول الأمر، إذ

(١) خطى مشيناها ص١٥١:١٥٢.
(٢) السابق ص٢١٠.
(٣) ذكرياتي الأدبية ص٥٥.
(٤) ينظر: السابق والصفحة ذاتها.
(٥) خطى مشيناها ص٢٠٨.

عمل محرراً في جريدة (كوكب الشرق) الوفدية بوساطة نائب الدائرة التي تتبعها قريته، ومكث شهوراً يعمل بلا أجر تحت التمرين، ولما طالب بأجر طرد من الجريدة، إذ قال له مدير إدارة الجريدة – وكان قصير القامة وعباس خضر طويل –: "واحد طويل زيك .. خسارة يعطل نفسه"(١)، وهي عبارة فهم منها عباس خضر أنه مطرود.

كان حينها في حالة فاقة شديدة، وكان ينشر مقالات مجاناً في مجلات وجرائد، فصادف أن طلب منه أحد أصدقائه في الدراسة بالأزهر أن يساعده في جمع المواد التاريخية عن الحجاج الثقفي؛ إذ كان الأديب الكبير (محمود تيمور) يزمع كتابة عمل أدبي عن الحجاج، ويريد مادة تاريخية عنه، فكان هذا الصديق واسمه (محمد شوقي أمين) يُحضر لعباس خضر المراجع ثم يعود ليأخذ ما تم جمعه من معلومات ويعطيه النقود مقابل عمله.

كانت فترة الدراسة والشباب فترة قلقة في حياة عباس خضر؛ لذا حاول العمل لكسب الرزق في مجلات قلقة – على حد تعبيره – أضفت عليه القلق، منها مجلة (الكرباج)(٢)، ومجلة (مجلتي) التي عمل بها شهراً مصححاً ومغلفاً بأجر، إذ كان يسهر يغلف المجلة في أظرف من الورق لإرسالها للمشتركين، ثم فصل من العمل بحجة أن بالمجلة أخطاء كثيرة، وهذا يعني أن عباس خضر لم يتقن عمله(٣).

ثم عمل بمجلة الرسالة مصححاً مقابل جنيهين في الشهر، كان ذلك بعدما نشر فيها مقالات – بالمجان – بعنوان: شعراء الموسم في الميزان(٤).

ثم تابع النشر في مجلات وجرائد في أغلب الأحيان من دون أجر وفي بعض الأحيان بأجر مثل: مجلة (الثقافة) "فهي تدفع لكل من يكتب فيها صغيراً أو كبيراً"(٥).

وقد نشر أول قصة قصيرة في صحيفة – كوكب الشرق – بعنوان: (زهرة الورد) وإن كان يعدها محاولة قصصية، في حين يعتبر قصة: (بنت صاحبة البيت) هي أول قصة قصيرة فنية كتبها، وكان نشرها في جريدة (البلاغ)(٦).

---

(١) خطى مشيناها ص١٥٢:١٥٣.

(٢) ينظر: السابق ص١٨٢.

(٣) خطى مشيناها ص١٥٨:١٥٩.

(٤) ينظر: السابق ص١٦٠.

(٥) السابق ص٢٧٦.

(٦) ينظر: السابق ص١٩٧.

وبعد التخرج عمل مدرساً في القاهرة، وقنا، والسودان: في الخرطوم وأم درمان[١].

وهو في التدريس كان يكتب أحياناً في الصحف والمجلات، وأحياناً يعمل محرراً بأجر، فكتب في الأهرام، ثم الأخبار، مع مواصلة الكتابة في (الرسالة) في باب الأدب والفن[٢].

ثم ترك التدريس وعمل سكرتيراً صحفيًّا للدكتور طه حسين عندما كان الأخير وزيراً للمعارف[٣].

ثم عمل وكيلاً لإدارة التأليف بوزارة الثقافة[٤].

ومن نشاطه في المؤتمرات العلمية، مشاركته في فعاليات مؤتمر أقيم في إيران نظمته جامعة (بهلوي) بشيراز عن العالم اللغوي (سيبويه) [٥].

ثمة شيء بقي في حياة عباس خضر العملية وهو: السياسة والعمل بها.

في بداية خطاه التي مشاها في شبابه شارك في الكتابة السياسية الحزبية في جريدة (مصر) وكان يوقع بـــــ (عين) إذ لم يكن يستطيع أن يوقع باسمه الصريح، وكانت كتاباته السياسية المنتمية إلى حزب الوفد كان الهدف منها الدخول في الصحافة والتمرين على حرفة الكتابة ليستطيع بعد أن يرتزق منها.

كان هذا قصارى مشاركته في السياسة، أما الانتماء إلى حزب ويجعل السياسة اهتمامه الجاد فلا، فهو كأي فرد من الشعب يحب العمل لصالح الوطن ويغضب له وفقط، وزاد من ذلك أنه تركبت في ذهنه صورة شوهاء مبغضة للسياسة، وفي ذلك يقول: "على أنني أقول بصراحة: كيف كان احتجاجي بعدم الاهتمام بالسياسة فإني فيما يتجاوز الحد الآمن وما يخشى منه من سجن أو اعتقال أو فصل أو نحو ذلك .. من الجبناء ! وأفضل أن أعمل العمل النافع في الحدود الآمنة.

---

(١) ينظر: السابق ص ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٥٦.

(٢) ينظر: ذكرياتي الأدبية ص٥٧.

(٣) ينظر: خطى مشيناها ص١٨٧:١٨٨.

(٤) ينظر: ذكرياتي الأدبية ص٣٩.

(٥) ينظر: خطى مشيناها ص١١ : ١٢..

وإذا كان هذا الجبن نقيصة فإن له عندي وجهاً آخر يحمد، وهو حرصي على التزام القانون واحترامه والسير على مقتضاه"[١].

هذا هو عباس خضر الذي يؤثر السلامة ويبتعد عن القلاقل رغم كثرتها في زمانه، فقد عاصر صبيًّا ثورة ١٩١٩م، والاحتلال الإنجليزي، وثورة ١٩٥٢م، وهزيمة ١٩٦٧م، وانتصار ١٩٧٣م، ومع ذلك آثر أن يبتعد عن السياسة ووجهها البغيض كما يراها من تملق ونفاق، وأحب أن يشارك في جوانب أخرى في الحياة الاجتماعية والثقافية، فليست السياسة كل شيء، وليست الصحافة كلها سياسة، ولعل طبيعة نشأته وانغماسه في مشاكله ومكابدة الحياة كل ذلك حمله على طلب السلامة وعدم المغامرة.

رابعا : الحياة الاجتماعية .

السيرة الذاتية في جوهرها "فن أدبي رفيع أمد الدراسات التاريخية والاجتماعية بمادة لا تنضب من الصور الحية"[٢]، إذ هي في حقيقتها إعادة لحياة كاتبها، ومن ثم فهي مرآة للعصر وتمثيل للمجتمع والبيئة عامة وخاصة، فأما العامة: فحديث عن العادات والتقاليد، وأما الخاصة: فحديث عن الأسرة والأصدقاء.

كتب عباس خضر سيرته في كتابين، سمى الأول: ذكرياتي الأدبية، وضمنه أحاديث ذات شجون عن أصدقائه وما تحفل به الحياة الأدبية وراء الجدران من خفايا وأسرار.

وسمى الثاني: "خطى مشيناها : صور بيئته أكثر مما هو سيرة ذاتية"، وعنوان الكتاب يشي بمضمونه، فهو معني بتصوير المجتمع الذي عاش فيه عباس خضر، سواء القرية أو المدينة أو المجاورون في الأزهر أو حياة الناس في السودان، تناول كل ذلك من حيث العادات والأعراف الاجتماعية، حتى الحياة اليومية من بيع وشراء وطريقة المأكل والمشرب، كل ذلك تناوله بقلم متمرس على كتابة القصة، فليس غريبًا أن يحفل بتصوير حياة الناس، وليس عجيبًا أن يصوره باقتدار.

نطالع في سيرة عباس خضر كل ما يتصل بحياة الناس في قريته أبو دنقاش إحدى قرى مركز أبشواي بالفيوم، ويروي أن أصلهم بدوٌ كانوا يعيشون في الخيام ثم بنوا البيوت واستقروا غرب الفيوم على حافلة الصحراء الغربية، لذلك فالقرية تتكون

---

(١) السابق ص١٩٢.

(٢) سيرة ذاتية عربية للطفي نبيل ص ٦ – ط دار الهلال – ١٩٩٢م.

من أسرات (عائلات) مثل قبائل البدو ليس بينهم تفاوت كبير، حتى أسرة العمدة لم تكن أكبر ولا أشد من غيرها، وقد كان أهل القرية جميعاً زراعاً يأنف الواحد منهم أن يكون نجارا أو حلاقا أو مثل ذلك، وكان هؤلاء الحرفيون يأخذون أجورهم في مواسم الحصاد والدراس، فالحلاق مثلا يحلق للزبون ولا يأخذ أجرا فوريا، حتى إذا جاء وقت حصاد القمح أو إعداد الذرة في (الجرن) مر بزبائنه على حماره يأخذ منهم ما يجود به دون تحديد ... فكل يعطي قدره"(١).

وأهل القرية شيمتهم التعاون، فإذا كان أحدهم مريضا أو في عمل يحتاج لمساعدة عاونه أهل القرية متطوعين، يستوي في ذلك الرجال والنساء.

وفي الأعياد بعد الصلاة يخرجون في مجموعات ببيوت القرية كلها يطوفون ليعيّدوا على كل من يلقونه، وعلى الجميع أن يأكل مما يقدم له من كعك أو تمر(٢).

حتى خطيب القرية رسم صورة له وهو يمسك في يده سيفاً خشبيًّا أو عصا من جريد هذبت جيداً، وكان الغلمان يهجمون على الخطيب بعد انتهاء الصلاة ينتزعون العصا "ويحرص كل منهم على أن ينال جزءا من البركة ممثلا في قطعة من العصا"(٣).

ويعجب عباس خضر – الشيخ الذي بلغ من العمر سبعين أو يزيد – من اختفاء تلك العادة في الخطابة فيقول: "لست أدري أين ذهب ذلك السيف الخشبي، فإن الخطيب الجديد نحّاه عن يده"(٤).

ولما انتقل إلى الأزهر في القاهرة صور العادات فيها، بدءا من استعانة القروي ببني بلدته أو أقاربه المقيمين في المدينة على قضاء حوائجه: "وهي عادة ريفية متأصلة أن يلجأ الريفي في القاهرة أو في أي عاصمة كبيرة ... إلى بلدياته المقيمين بها، لكي يستعين بهم في أموره بالمدينة، وقد ينزل ضيفاً عليهم، خفيفاً أو ثقيلاً، حسب الأحوال والعلاقات"(٥).

---

(١) خطى مشيناها ص١٤.

(٢) ينظر: السابق ص٨.

(٣) السابق ص٧.

(٤) السابق ص١٢٦.

(٥) السابق ص٧٩.

صوّر عباس خضر كذلك حياة المجاورين في الأزهر وما كان يقع بينهم وبعضهم أو بينهم وبين أهل القاهرة من شجار، وطريقة عيشهم وأكلهم، واستوفى وصف (الرابعة)[١] و(الجراية)[٢] و(الرواق)[٣] وحياة الطلبة المجاورين فيه، وذكر أن أروقة الغرباء من الشوام والمغاربة والجاويين (الإندونيسيين) كانت نظيفة ومهيأة للسكنى على خلاف أروقة المصريين، ويلحظ عباس خضر أنه لم يكن يدب شجار بينهم وبين المجاورين المصريين ويفسر ذلك بأنه "ربما لأن المصري بطبعه يحاسن الغريب ويعامله بالود ... وربما يرجع ذلك إلى الخشية من السكاكين التي يحملها الغرباء، إذ كان يقال لنا إنهم (حماية) فكثير منهم تحميه الحماية الفرنسية أو الإيطالية أو الإنجليزية .. على حسب الدولة الأوربية التي تحتل بلاده، والتي يتمتع أفرادها وأفراد مستعمراتها بالامتيازات الأجنبية في مصر، ومن أبرزها عدم خضوعهم للسلطة المصرية .. مسكينة مصر .. طالما عانت"[٤].

ولما انتقل عباس إلى السودان وصف عادات السودانيين في المأكل والمشرب، وأفاض الحديث عن كرمهم وحسن عشرتهم، يقول حينما وصل بأسرته إلى أم درمان "ما مضت ساعة من نزولنا حتى طرق الباب.. دخل غلامان يحمل أحدهما صينية الغداء والآخر بطيخة.... وحدث مثل ذلك في العشاء؛ إذ جاء به نفس الغلامين.

وفي صباح اليوم التالي جاء غلام آخر من بيت آخر من بيوت الجيران، وقال: الأفندي يقول لكم ما تطبخوا الليلة، و(الليلة) باللهجة السودانية معناها بالمصرية (النهارده).

---

(١) الرابعة: عبارة عن عدد أجزاء القرآن الكريم مضروبة في أربعة، وحاصلها مائة وعشرون، يطبع كل جزء من القرآن مستقلا، ويوزع على مائة وعشرين مجاورا، يقرؤونها ريثما توزع عليهم الجراية، بغرض إهداء ثواب القراءة لمن أوقف ريع أرض أو ما شابه لإعداد طعام للطلبة. (ينظر وصف الرابعة في : خطى مشيناها ص ٨٤ : ٨٥).

(٢) الجراية: هو خبز يوزع على المجاورين والعلماء بالأزهر الشريف، وهو نوعان: عادي للمجاورين، وخاص للعلماء. (ينظر وصف الجراية في: خطى مشيناها ص ٨٦).

(٣) الرواق: جزء مخصص من مساحة الجامع الأزهر للطلبة يقيمون فيه مدة دراستهم، وهؤلاء الطلاب يدعون المجاورون. (ينظر وصفه في: خطى مشيناها ص ٨٣ : ٨٥).

(٤) السابق ص١١٢.

ومكثنا سبعة أيام لانطبخ"[١].

ولا يكتفي عباس خضر بوصف طبائع الناس وعاداتهم في شؤون الحياة بل تطرق أيضا للمقارنة بين الجيل الماضي والحاضر له في الاغتراب والسعي لطلب الرزق بحثا عن عمل في بلاد الله، فقد كان الجيل الماضي يعد الاغتراب عذابا ونفيا وعقابا "والآن تبدلت الحال، وصار اغتراب المصري مطلبا عزيزا، بل أمنية، بعد أن كان يعد فاجعة، حتى الفلاح المصري الذي عُرف بشدة لصوقه بالأرض صار الآن يطوف غربا إلى ليبيا وشرقا إلى العراق وسبحان مغير الطباع"[٢].

حقا سبحان مغير الطباع لتتكيف مع متقلبات الحياة وفساد الولاة.

وإذا ما عرّجنا إلى الحياة الاجتماعية الخاصة المتمثلة في الأسرة والأصدقاء، فسنجد حديث عباس خضر عن أسرته كان متحفظاً أشدّ ما يكون التحفظ، حيث جاء موجزاً، وبإشارات خاطفة فرضها سرد الأحداث.

ومع ذلك نستطيع أن نكوّن صورة عن أفراد أسرته، فالأب صوره قاسياً مع رحمة، أو كما يقول الشاعر[٣]:

فَقَسَا لِتَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حازمًــا فَلْيَقْسُ أحيانًــا علــى مَــنْ يَــرْحَمُ

وقسوة الوالد نابعة من رغبته في أن يخشوشن الابن ويتحمل المشاق فلا يهاب أي شيء[٤].

وأيضا كان يدفع ولديه عباس وأخوه الأكبر على أن يجدّا في طلب العلم ولا يتكاسلان، فقد كان يأمل في ولديه خيراً عظيماً، يقول عباس خضر: "أراد أبي أن أتمذهب بمذهب أبي حنيفة الذي يتيح للخريجين فيه أن يلوا مناصب القضاء الشرعي، ومنصب مفتي الديار المصرية، عسى أن أفلح وألي هذا المنصب، والأمل الآخر أن

(١) خطى مشيناها ص٢٢٨:٢٢٩.

(٢) السابق ص٢٢٨.

(٣) الشاعر هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ٢٠٠/٣ – ت/محمد عبده عزام – ط دار المعارف – مصر – الرابعة – ١٩٨٢م – والبيت من الكامل.

(٤) ينظر: خطى مشيناها ص ٥١.

يفلح أخي المالكي المذهب ويصير شيخاً للأزهر، فيجمع المجد الديني من طرفيه .. هكذا كانت أمنية أبي التي لم تتحقق"[١].

وصور عباس والده أيضاً "متلافاً سيء التصرف في المال، لم يحسن تدبير ما جناه من بيع القطن الغالي، إذ تزوج وكان من المبذرين"[٢].

أما الأم فصورها حنوناً عطوفاً وفيها شدة مكبوتة؛ ظهرت شدتها لمّا كبر أولادها، وهو الأمر الذي دفع الأب إلى الزواج ليغيظها، "وأمعن في الإغاظة فكان زواجه من زنجية كانت أصولها من الرقيق .. لقى ذلك الزواج استنكاراً شديداً لا من الأسرة الصغيرة فقط، بل كذلك من الأسرة الكبيرة: الأعمام وأبناء الأعمام ومن إليهم"[٣].

أما الأخ الأكبر فصوره أميناً، يقول: "فإذا كان وحده واشترى لنفسه شيئاً يأكله أو يشربه، جاء إليّ بعد وأعطاني مثل ما اشترى به لنفسه"[٤].

وكان هذا الأخ الأكبر يسبق عباس في التعليم، ثم تزوج فكان زواجه بداية ضائقة مالية للأسرة بسبب الإسراف في تكاليف الزواج، الأمر الذي أفضى إلى شقاق لا ينقطع بين الوالدين، وبين العروسين كذلك، فانقطع عن الدراسة، واستمر الشقاق حتى أفضى إلى طلاق[٥].

كان لعباس خضر أخ أصغر ورد ذكره عرضاً، أشار إليه مرة واحدة فقط في معرض حديثه عمّا نال أسرته الكبيرة من شقاق وتفرق، هذا الأخ الأصغر "لم يتعلم وكان من طبعه مواجهة الأمور بالعنف الذي أدى به إلى السجن في حادث مشاجرة قتل فيها – عن غير عمد – من اشتبك معه"[٦].

هذا عن الأب والأم والأخوين، أما عن زوجة عباس خضر فصرح بأنه سيكون متحفظاً في الحديث عنها، وعلل ذلك بأنه رجل شرقي متحفظ وهي أم الأولاد، وقد

---

(١) السابق ص٩٤.

(٢) السابق ص٥٩.

(٣) السابق ص١٥٠:١٥١.

(٤) السابق ص٤١.

(٥) ينظر: السابق ص١٢٤.

(٦) السابق ص١٥٠.

أحسنت إليه وشاركته العيش في قبول وقناعة، وهيأت له الجو للإنتاج، ومما ذكره عنها أنها بنت الجيران قضت في التعليم سنوات ثم أقعدوها بهدف الزواج[١]، وكانت تعينه بتهيئة جو مناسب للإنتاج والإبداع، وأحياناً تقرأ له في الأوقات التي يصعب عليه فيها القراءة كحالة الرمد[٢].

أما الأولاد فكان حديثه عنهم أشد اقتضاباً من الزوجة، فأشار إلى أنهم خمسة: بنتين وثلاثة أولاد، يقول عنهم: إنهم لم تكن لهم ميول أدبية بل "لا يكادون يعلمون ماذا أكتب، ولن يقرأوا هذا الكلام إلا إذا نبهوا إليه"[٣].

والملاحظ أن عباس خضر لم يهتم بذكر الأسماء في أسرته، وقد جاء ذكرٌ لاثنين فقط عرضاً ومرة واحدة لكل منهما، الأول: وهو الأخ الأكبر وذكر اسمه في معرض ذكره دعاء جدته لهما عقب صلاة الفجر، كانت تقول: "إن شاء الله أشوفك يا حمزة أنت وعباس مآمير ونيابة"[٤]. فعلمنا أن اسم أخيه الأكبر (حمزة).

وهذه الجدة لم يرد لها ذكر إلا في هذا الموضع فقط.

والثاني: ابنه الأكبر واسمه (صفوان)، كان ذكره عباس خضر في ثنايا حديثه عن قسوة أبيه معه في التعليم، الأمر الذي جعل عباس رقيقاً مع ابنه الأكبر (صفوان) الذي يدرس الدكتوراه في جامعة بالولايات المتحدة[٥].

أما غير ذلك فلم يحفل قلمه بتدوين أسماء لأسرته، ولعل ذلك كما قال عن نفسه: بأنه رجل شرقي متحفظ[٦]، ولكن هذا التحفظ وإن كان يقبل في الحديث عن النساء فما باله مع الرجال، ولعل هذا راجع إلى أن عباس خضر يكتب سيرته هو، والمؤثرات في حياته وشخصيته، فكان اهتمامه كله منصب على نفسه وأصدقائه الذين حفلت سيرته بذكرهم لأنهم قاسم مشترك في ذكرياته الأدبية وأحداث حياته التي ركز عليها وانتخبها من رحلته الطويلة في الحياة.

---

(١) ينظر: السابق ص٢١٧.
(٢) ينظر: السابق ص٢٦٤.
(٣) السابق ص٢٦٥.
(٤) السابق ص١٢٠.
(٥) ينظر: السابق ص١٦.
(٦) ينظر: السابق ٢١٧.

خامسا : دهاليز الحياة الأدبية.

ضمّن عباس خضر جانباً كبيراً من الحديث عن خفايا الحياة الأدبية في بعض عقود القرن العشرين، تحديداً الفترة ما بين الثلاثينيات وحتى أوائل السبعينيات، وقد ساعده على رصد كثير من هذه الخفايا عملُه في الصحافة مصححاً ومحرراً، فقد كان يقرأ الجريدة أو المجلة مرتين قبل النشر، إضافة إلى صداقاته المتشعبة مع أساطين الأدب ولقائه بهم في المنتديات والمقاهي، الأمر الذي أتاح له التعرف على كثير من كواليس الحياة الأدبية، فذكر في مقدمة كتابه (ذكرياتي الأدبية) أنه احتك عن قرب ومن البعد بشخصيات وقضايا فكرية قرابة أربعين عاما[١]، وأن ذكرياته معهم لا أول لها ولا آخر؛ ولهذا حوى الكتاب كمًّا هائلاً منها.

ومن هذه الخفايا والكواليس: أن طه حسين كان يخشى العقاد "ويعمل له ألف حساب، وما كان يخشى في عالم الأدب أحداً مثله، وكان العقاد يغتاظ من تقديم طه حسين عليه في أي مناسبة ولا يقبل أن يسبقه في حفل"[٢]. وقد أراد طه حسين أن يؤلف قلب العقاد فدعا إلى حفل لتنصيب العقاد أميراً للشعر بعد وفاة أحمد شوقي، وقيل: إن طه حسين أراد بذلك أمرين: الأول: تأليف قلب العقاد، والثاني: أن يلهي العقاد بإمارة الشعر وتخلو لطه حسين إمارة النثر، وأيًّا ما كان فإن المجتمع الأدبي تلقى هذا الأمر بالسخرية الحادة[٣].

ومنها أيضاً: حديثه عن الأديب كامل كيلاني فقد روى أنه كان "يشعر بالمرارة وتعيش في أعماقه روح المنافسة إزاء رجلين: العقاد وأحمد زكي أبو شادي، فقد كان صديقًا لكل منهما، ولكنهما – كما كان يصور – لم يفيا له ولم يراعيا صداقته، وكانت مرارة نفسه أن يراهما يكبران ويعظم شأنهما في عالم الأدب، فكان دائم الحط من هذا الشأن في المجالس"[٤].

---

(١) ينظر: ذكرياتي الأدبية ص ٤.

(٢) السابق ص٣٠.

(٣) يراجع ذلك في خطى مشيناها ص ١٦٨:١٧٠، وذكرياتي الأدبية ص٣٠.

(٤) خطى مشيناها ص١٧١.

وذكر عباس خضر أن توطيد صداقته بكامل كيلاني أوقفته على كثير من خفايا الحياة الأدبية(١).

ومنها أيضاً: ما ذكره عن مكايد وحيل كامل الشناوي الأدبية، إذ كان يبعث بقصائد إلى مجلة الرسالة فلا تنشر، ويرى قصائد دونها مستوى غير أنها لشاعر عربي، وعرف في المجلة هذه الظاهرة فبعث إليها بقصيدة ووقعها باسم غريب منسوب إلى بعلبك، فنشرت، فكان كامل الشناوي يطلع رفاقه على هذه الظاهرة وقد يراهن عليها ويكسب الرهان(٢).

ومنها أيضاً: أن أحمد أمين الكاتب الكبير كان سرق فكرة مقال لعباس خضر بعنوان: (أدعياء التجديد) فجعله: (التجديد والمجددون)(٣). وذكر أيضاً أن العقاد كان يناصبه العداء(٤).

ومثل إفصاحه بأن كبار الأدباء والشعراء كانوا يوثقون صلاتهم بالصحافة والصحفيين حبًّا للشهرة وبقاء الذكر، وذلك لأن الناس تعرف الأدباء والمبدعين من الصحف وتردد أسمائهم وإن لم يكونوا على علم بأدبهم، ويقول: "وما زال هذا حتى الآن لم ينقطع"(٥).

ومثلما ذكر بأن الهوى الشخصي في النقد كان صريحاً، وضرب مثالاً لذلك بحملة الرافعي العنيفة على طه حسين؛ لأن الأخير لم يستقبل الأول بحفاوة في إحدى اللقاءات، فعزّ على الرافعي ذاك التجاهل وأراد أن يعرّف طه حسين قدره(٦). ومثل نقد الكاتب الصحفي محمود السعدني لعباس خضر وتحامله عليه لأن عباس داعبه مداعبة لم ترق محمود السعدني، فأسرها في نفسه، ووصف عباس خضر في إحدى مقالاته بأنه (أديب محنط)(٧).

---

(١) ينظر : السابق ص١٧٤.
(٢) ذكرياتي الأديبة ص١٠٣.
(٣) ينظر : السابق ص ١٠.
(٤) ينظر : السابق ص ٣٨ : ٣٩.
(٥) ذكرياتي الأديبة ص٧٤.
(٦) ذكرياتي الأدبية ص١١٩.
(٧) ينظر: ذكرياتي الأديبة ص١١٩.

لم يكن حديث عباس خضر في هذا الجانب قاصرا على سرد كم غزير من خفايا الحياة الأدبية والثقافية وما كان من منافسة بين الأدباء والمشاهير فقط، بل ضمنه كذلك تدرج فكره النقدي، فقد ذكر أن نقده أول الأمر كان متأثراً بمخالطة الشعراء المحافظين كالهرّاوي ومحمد الأسمر وأمثالهما مما جعل عباس خضر يظلم الشاعر إبراهيم ناجي في مقالات كتبها في بداية حياته الأدبية بمزاج تقليدي، ثم بعد ذلك نضج فكره النقدي وتحرر فصار يكتب على نور(١).

ذلك وغيره الكثير والكثير مما ذكره عباس خضر عن ذكرياته الأدبية وحياته الثقافية فكشف عورات عصره وما يدور خلف الجدران من خفايا وأسرار الحياة الأدبية في عصره.

سادسا : المؤثرات في شخصيته .

تحدث عباس خضر في سيرته عن المؤثرات في شخصيته، وكان حديثه عنها أحياناً صريحاً، وأخرى يستنبط من الأحداث.

وأولى هذه المؤثرات: ما غرس في جوانحه من حب العلم وتقدير العلماء، يدل على ذلك استهلاله سيرته بفصل كامل بعنوان (أحمد أفندي) وهو استاذ والده، وقد استطرد الحديث عن هذه الفكرة وهي تقدير العلماء وحب العلم في أكثر من موضع(٢).

وثانيهما: روح المنافسة في طلب العلم والتبحر في الأدب والثقافة، نلمس ذلك إعجابه بزميله في الدراسة بالأزهر وهو (كامل الشناوي) ذلك الولد (الشاطر في الإنشاء) يقول عباس خضر "وعدت إلى المنزل في ذلك اليوم ولم يبرح خيالي منظر (ابن الشيخ الشاطر في الإنشاء) لابد أن أكون كذلك"(٣).

وبدأ عباس يوجه همه صوب كتب الأدب التي كان قد خطا خطوات نحوها حينما كان يقرأ في الأدب الشعبي وهو غلام قبيل سن البلوغ، وبعض أجزاء من ألف ليلة وليلة. ولعل هذا ما حدا به إلى الإعجاب بشواهد النحو الشعرية(٤)، علاوة على مطالعته مجلتي السياسة والبلاغ(٥).

---

(١) ينظر: السابق ص٢٠:٧٥.

(٢) يراجع في ذلك: خطى مشيناها ص١١ : ٢٢ .

(٣) ذكرياتي الأدبية ص١٠٥.

(٤) ينظر: خطى مشيناها ص٦٥ ، وذكرياتي الأدبية ص٧.

(٥) ينظر: ذكرياتي الأدبية ص٧.

ثالثا: أساتذته وقد ذكر أنه تأثر بعدد من الأساتذة ومنهم (الشيخ البجرمي) الذي كان مركز جاذبية للطلبة لحسن أدائه[١]، ومنهم (الأستاذ حمدي) مدرس التاريخ الذي بلغ إعجاب عباس له حد الانبهار لسعة ثقافته وفنه التربوي العالي[٢]. ومنهم (محمود الخفيف) الذي كان يدرس له في القسم الثانوي وكان يكتب في الرسالة ، وكان عباس معجباً بأسلوبه ويصفه بأنه السهل الممتنع[٣]. ومنهم (الدكتور العناني) الذي درس لعباس في دار العلوم، وكان عالماً مهيباً يذكره عباس بالإجلال والإكبار[٤]. ومنهم الأديب الكبير (أحمد أمين) فبالرغم من غضب عباس خضر من أحمد أمين لأن الأخير سرق فكرة مقال الأول في بدء رحلته في عالم النشر والإبداع، إلا أن ذلك لم يمنع عباس خضر من التعلم من الأستاذ وفكره الثاقب فيقول: "قسرت نفسي على أن أقرأ لأحمد أمين رغم غضبي منه، وتعلمت من ذلك أن انفعالي من سوء معاملة الكاتب شيء وقراءاتي له شيء آخر، لا ينبغي أن يمنع الأول من الثاني"[٥].

أيضا يستخلص من سرد حياة عباس خضر مكونات ثقافته الأدبية، وهي:

١- صديقه أبو زيد الذي حببه في الشعر والملاحم وهو بعد صبي"[٦].

٢- ما كان يقرؤه في صباه من الأدب الشعبي، وألف ليلة وليلة، وكتاب الأغاني، وجواهر الأدب، وبدائع الزهور[٧].

٣- إعجابه بشواهد النحو وحرصه على مطالعة مجلتي السياسية والبلاغ[٨]. ومطالعته للروايات الرومانسية[٩]. وحرصه على متابعة مؤلفات المنفلوطي، فكانت أقوى المؤثرات في تكوينه الأدبي والثقافي[١٠].

---

(١) ينظر: خطى مشيناها ص١٠٣ :١٠٤.

(٢) ينظر: خطى مشيناها ص١٣٦.

(٣) ذكرياتي الأدبية ص٧.

(٤) السابق ص٤٥.

(٥) ذكرياتي الأدبية ص٥٥.

(٦) ينظر: خطى مشيناها ص٥٢ :٥٣.

(٧) ينظر: السابق ص٥٥ :٥٦.

(٨) ينظر: السابق ص٦٥ ، وذكرياتي الأدبية ص٧.

(٩) ينظر: خطى مشيناها ١١٩ :١٢٠.

(١٠) ينظر: السابق ص١٠٩.

٤- تأثر بكتابات (معاوية نور) وهو أديب سوداني استقر في القاهرة وكتب في جريدة (كوكب الشرق) ثم (مصر)، وتأثر عباس بما يعرضه (معاوية نور) من فكر جديد غير ما يعهده ويألفه، فرأى أن كتابات (نور) ثورة على الجمود في الأدب ودعوة إلى النهوض بفن القصة المتعثر في بلاد العرب(١).

٥- المنتديات الأدبية، وكانت مصدراً مهماً في تكوين ثقافته وتوثيق صداقته بأساطين الأدب.

٦- تأثر تأثيراً عكسيًّا بخطب الطلبة من القسم العالي بالأزهر، فجعلته يغرق في التفكير النقدي لتأملها ونقدها؛ فعلا حسه النقدي، ونفر من الجمل الرنانة والعبارات المترادفة في الأسلوب(٢).

أيضاً من المؤثرات في شخصية عباس خضر ولكن بصورة عكسية، ما تركب في وجدانه من قسوة أبيه معه في التعليم، فقد حمله هذا على أن يكون رفيقاً بأولاده؛ فإذا أصاب أحدهم صدود عن الاستذكار؛ فإنه يروّح عنه ويعيد النشاط إليه باللين والتشجيع وليس التأنيب(٣).

وأيضاً، يلاحظ أن عباس خضر كان محافظاً على وحدة بيته وتماسك أسرته رغم أنه صرح أن لم تكن بينه وبين زوجه طباع مشتركة، يقول عن زوجه: "فلم نكن متفقين في الطباع، لا تكاد ميولنا تتحد في شيء حتى أصناف الطعام"(٤)، والأمر الوحيد المشترك هو تربية الأولاد(٥). ويقول عن أولاده: "وكبر الأولاد وشاء الله لهم أن يسلكوا في حياتهم وفي أفكارهم مسالك ليس من بينها الأدب ... وصار الجميع في واد، ووقفت وما زلت أقف في الوادي الآخر"(٦). فلعل حرصه على وحدة أسرته وترابطها، كان بسبب ما حدث لأسرة والده من شقاق وتمزق.

---

(١) ينظر: السابق ص١٩٤.

(٢) ينظر: ذكرياتي الأدبية ص٧٢ :٧٣.

(٣) ينظر: خطى مشيناها ص ١٦.

(٤) السابق ص ٢٦٤.

(٥) السابق والصفحة ذاتها.

(٦) السابق ص ٢٦٥.

المبحث الثاني
السيرة الذاتية لعباس خضر
تحليل ونقد

وفيه يتناول البحث بالنقد والتحليل المحاور الآتية:

- أولاً: البناء الفني لسيرة عباس خضر.
- ثانياً: أسلوب عباس خضر في سيرته.
- ثالثاً: تصوير الشخصيات والصراع.
- رابعاً: الصدق والتعري النفسي والاعتراف.
- خامساً: دلالة السيرة على شخصية كاتبها.

المبحث الثاني: السيرة الذاتية لعباس خضر (تحليل ونقد)

أولاً: البناء الفني لسيرة عباس خضر.

كاتب السيرة عليه أن يتمتع بحس أدبي عالٍ في بناء عمله الأدبي ومنهج العرض والتقسيم وسرد الأحداث واختيار الملائم لشخصيته وتصويرها كما هي من غير تزييف أو تجميل، وكلما كان كاتب السيرة موفقاً في هذا الجانب كان أكثر إمتاعاً للمتلقيين، "فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء"(١).

وبالنظر في طريقة العرض والبناء لكتابي عباس خضر (ذكرياتي الأدبية) و(خطى مشيناها) اللذين ضمنهما سيرته ورحلة حياته، نجد أن طريقة العرض ومنهج البناء جاء صورة لشخصية عباس خضر، شيء مختلف ومتميز، شيء على غير مثال معهود، أو كما يقول عن نفسه: "أحب دائماً أن أصنع شيئًا على غير مثال"(٢).

وإذا كان "النص وليداً لصاحبه، فإن الأسلوب هو وليد النص ذاته"(٣)، وأسلوب عباس خضر في بناء سيرته وطريقة عرضه يميل نحو الانزياح(٤) أو العدول على مستوى النص، أو بمعنى آخر كسر المألوف في بناء السير الذاتية من ترتيب الأحداث

---

(١) فن السيرة لإحسان عباس ص٧٩.

(٢) خطى مشيناها ص٢٦٥.

(٣) الأسلوبية والأسلوب للدكتور/عبد السلام المسدي ص٨٨ – ط الدار العربية للكتاب – الثالثة.

(٤) الانزياح: هو نظرية حداثية تعني خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال رؤية ولغة وصياغة وتركيبا. وهو مستويات تهدف إلى تحقيق حظ وافر للنص الأدبي من التفرد، والأسلوب الخاص في الخلق والأداء. (ينظر: أطياف الوجه الواحد دراسات نقدية في النظرية والتطبيق للدكتور/ نعيم اليافي ص ٩٢ وما بعدها – ط مطبعة اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٧م.

حسب المراحل العمرية، أو سرد الذكريات وفق التدرج الزمني، فنجده في كتابه (ذكرياتي الأدبية) يصرح بأنه لم يضع لذكرياته منهجاً ولا خطة، فيقول: "إن هذه الذكريات ليس لها منهج مرسوم، ولا هي ... تخضع لتخطيط.

وأصارحك بأني لا أكاد أفكر فيها قبل كتابتها، وأحتار قبل أن أبدأ .. ماذا سأكتب؟ ثم ما إن أخط شيئًا حتى تنثال على انثيالا"(١).

ولعل هذا هو ما حمله على ألا يضع لفصول الكتاب عنواناً، فالمطالع للكتاب يجده مقسماً إلى عشرة فصول، ثم مقالات متصلة بهذه الذكريات نشرها عباس خضر في الجرائد والمجلات. ونراه يذكر الفصل بلا عنوان هكذا: (الفصل الأول) ويشرع بسرد ما تسعفه به الذاكرة من ذكريات.

لقد صرح عباس خضر في المقدمة بأن ما سيكتبه هو "ذكريات وليست مذكرات، أي أنها تكتب الآن فتستمد من الذاكرة"(٢).

كما نص على أن هذه الذكريات الأديبة "لا تعد من قبيل السيرة الذاتية بمقدار ما هي حديث عن شخصيات وقضايا فكرية عاصرها واحتكت بها من قريب ومن البعد على مدى نحو أربعين عاما"(٣).

ولكنها في الحقيقية والواقع سيرة ذاتية تصوّر جانباً من حياته العقلية والعملية والاجتماعية، وفيها أيضاً سرد لمراحل حياته العمرية، ولكن ليس كما هي في (خطى مشيناها).

فكتابه الثاني (خطى مشيناها) يسرد رحلة حياته بصورة أعمق وأرحب وأدق، كما تخضع للتخطيط والاختيار، ويضع عناوين للفصول يحدد فيها ما سيعرضه وينتخبه من الأحداث التي مرت به في حياته، كما يعمد إلى عنصر التشويق كالذي نطالعه في الروايات؛ إذ يختم الفصل بحدث ولا يتمه، بل يترك تفصيله للفصول القادمة؛ فيكون هذا الحدث بمثابة التشويق والحث على متابعة فصول الكتاب، فهو مثلا في فصل (سيّدنا) يتحدث عمّا جرى لشيخ الكتّاب من جراء مزاولته السحر والشعوذة، ثم يختم

(١) ذكرياتي الأديبة ص٩٥.

(٢) السابق ص٤.

(٣) السابق ص٤.

هذا الفصل قائلا: "وقد حاولت أنا أن أفعل شيئًا من سحر .. فوقعت في موقف لا أنسى ما لقيت فيه من خزي عظيم"(١).

ثم يسرد – في تفصيلٍ – ما كان من أمر هذه المحاولة وما لاقاه منها في فصل جديد بعنوان (حب وسحر).

أو نجده وهو يحكي حياة المجاورين يذكر(الرابعة)، ولكن ليس هنا أوان تفصيلها فيقول: "مهلا سأحكي لك عن (الرابعة)"(٢)، ثم بعدما يتم سرد حياة المجاورين يحكي عن (الرابعة) ويصورها تصويراً دقيقاً.

إن هذا الصنيع يدل على أنه كان يخطط لبناء سيرته واختيار الأحداث التي توضح فكرة الفصل وتساعد على تنامي السيرة وتتابعها.

وبالرغم من أن كتاب (خطى مشيناها) يخضع لمنهج وخطة في بنائه وسرد الأحداث إلا أن هذه الطريقة أيضاً في العرض والبناء طريفة وغير تقليدية، إذ لا يهتم بالترتيب الزمني لمراحل عمره بل يقفز للأمام سنوات في سياق حديث عن الطفولة، ومرة يعود إلى الخلف في سياق سرد أحداث عن الكهولة، فيجذبه الاستطراد إلى تذكر كل ما يدعم الفكرة ويوضحها من مواقف في حياته. حيث جعل بناء فصول سيرته على أساس أفكار عامة يستقطب إليها كل ما يوافقها ويصورها للمتلقي، فهو مثلا في الفصل الأول يجعل عنوانه (أحمد أفندي) والفكرة العامة هي حب العلم وتقدير العلماء وأثرهم في المجتمع ومَن يعلمونهم، وفيه يتحدث عن أثر الأستاذ (أحمد أفندي) في والده وقريته وهو نفسه وأترابه، ثم يسرد موقفاً له في إيران وقت مشاركته في فعاليات مؤتمر عن العالم النحوي سيبويه(٣)، وكيف تعرف على طالب بجامعة (بهلوي) اسمه (محمد ملك) وقد احتفى هذا الطالب بعباس خضر أيما حفاوة، ذلك لأن معلماً مصريًّا كان علّم هذا الطالب – وهو مع أسرته في الكويت – سنوات دراسته الأولى، فكان أثر هذا المعلم باقياً في نفس هذا الطالب الإيراني، يقول عباس خضر: "سلام على محمد ملك الصديق

(١) خطى مشيناها ص٢٠.

(٢) خطى مشيناها ص٨٣.

(٣) ذكر عباس خضر أن هذا المؤتمر كان العام السابق لكتابته سيرته الذاتية (خطى مشيناها)، والكتاب نشر عام ١٩٧٧م، وعليه فهذا المؤتمر كان عام ١٩٧٦م أو ١٩٧٥م على أبعد تقدير. (ينظر: خطى مشيناها ص١١).

الإيراني، وسلام على أستاذه المصري في الكويت، وسلام على ذكرى أحمد أفندي معلم والدي الأول"[١]. هكذا كان الانتقال يتم في سياق مقتضى السرد ومتطلبات الربط الفني للموقف أو الفكرة التي يتحدث عنها.

وإن المتأمل في البناء الفني لسيرة عباس خضر الذاتية يلحظ أنه يجمع خصائص اليوميات والمذكرات والسيرة الذاتية في وقت معاً.

ففيها اهتمام بالمشاهدات والانطباعات وتصوير البيئة وحياة الناس، فهي على هذا يوميات.

وفيها اهتمام بالأشخاص والأحداث التي عاصرها وكان طرفاً فيها، فهي على هذا مذكرات، إلا أنها تستمد من الذاكرة وليس من شيء مدون.

وهي تصوّر جميع مراحل عمره وتعرض المؤثرات في شخصيته، وأدق مشاعره، وتستبطن ذاته، وتعرض ذلك بصدق وشفافية وفنية وبأسلوب أدبي رائق شائق، فهي على هذا سيرة ذاتية.

فلو نظرنا إلى تحقق سمات كل نوع على حدة لصُنّف هذا العمل الأدبيّ على أنه يمثله، وهذا المزيج هو ما جعل بناء سيرة عباس خضر طريف وجديد.

ثانياً: أسلوب عباس خضر في سيرته.

أول ما نلمسه في خصائص ومميزات أسلوب عباس خضر هو (الاستطراد) الذي هو سمة ظاهرة في أسلوب وطريقة عرض الأحداث وسردها، إذ يتنقل بالأحداث بين الماضي والحاضر لأدنى مناسبة.

فمثلا يبدأ سيرته بأول شيء علق بذاكرته وهو (أحمد أفندي) أستاذ والده، وهذه ذكريات دون العاشرة قطعاً؛ لأنه لا يتذكر كل التفاصيل عنها، وإنما يتذكر هذا الأستاذ، والمدرسة التي أزمع إنشاءها ولم تتم، فصارت ساحتها تستغل في لعب الطفال، واستطرد يذكر أنواع اللعب، وفي العيد تستغل الساحة لصلاة العيد، وهنا يستطرد فيقفز بالزمن فإذا عمره ستة عشر عاماً وهو قائم خطيباً في الناس وإماماً لأول مرة، ثم يستطرد إلى سرد عاداتهم في العيد، ثم يشعر باستطراده فيقول: "ونعود إلى أحمد أفندي والمدرسة التي لم تتم"[٢].

---

(١) خطى مشيناها ص١٢.

(٢) السابق ص٨.

وعباس خضر يشعر بهذا الاستطراد وعدم قدرته على التحكم في التنقل بالأحداث واستباق التدرج الزمني، فيعود إلى ما كان بدأه فيقول: "بعد هذا الاستطراد أقول"[١]. أو يقول: "على أية حال لندع هذا إلى حينه، فأنا الآن في المرحلة الأزهرية الأولى ...."[٢]. أو يقول: "لنترك هذا كي نعود إلى البرنامج اليومي"[٣]، أو يقول: "وإذا عدنا إلى ما كنا فيه، ولابد أن نعود فسنجد ....."[٤]. أو يقول: "ونصل ما انقطع، فنعود إلى ما كنا فيه، ولكن ماذا كنت أقول ؟ آه .. كنت أقول...."[٥].

والحقيقة إن عباس خضر في استطراده واسترساله في الحكي يُمْتِع فلا يملّ القارئ ولا يشعر بسأم من هذا الاستطراد ، بل على العكس يتابع بشغف ومتعة، وهذا راجع إلى قلم عباس خضر الذي تمرس على كتابة القصة، فيحسن التخلص من موقف لآخر، وكل سرد أو وصف لموقف أمتع من سابقه. فالاستطراد الذي يعد عيبا عند غيره وجالبا للسأم والضجر ممتع عند عباس خضر، بل لا يشعر القارئ أنه انجرف به حتى ينبهه إلى ذلك في غالب الأحيان.

وبرغم عدم ترتيب الأحداث وفق التدرج الزمني، واستسلامه للاستطراد وفق مبدأ (الشيء بالشيء يذكر)، إلا أن جمال الأسلوب كامن في أنه يعتمد على الهمس في وجدان القارئ، فهو يندرج ضمن الأدب المهموس، ذلك الأدب الإنساني الذي يصاغ من الحياة وكأنه قُطع منها، فيه ما في الحياة من تفاهة ونبل، فيه ما فيها من عظمة وحقارة، أدب يهتم بالتفاصيل الصغيرة التي هي نسيج الحياة، فليس أمتع للمتلقي ولا أشق على المبدع من أن يوقفنا على دقائق ما نلاحظه كل يوم[٦]، إن أسلوب عباس خضر فيه هذا الهمس وتلك التفاصيل، فالمادة الخصبة التي عرضها، والتاريخ الحي

(١) السابق ص٢٧.
(٢) السابق ص٩٧.
(٣) السابق ص١٠١.
(٤) السابق ص٢٦٥.
(٥) ذكرياتي الأدبية ص١٦.
(٦) ينظر: في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ص ٩٨ – ط مطبعة كوتيب – تونس – الأولى – ١٩٨٨م.

الذي صوره يجعل من بناء السيرة الذاتية عنده شيئا على غير مثال، وعاكس لشخصية صاحبه في الآن ذاته.

فما الاستطراد الذي يعم سيرة عباس خضر إلا صورة لشخصيته التي تتجاذبها نوازع وآمال، فهو يدرس في الأزهر وعينه تتطلع إلى التعليم النظامي، يهوى الكتابة الحرة والأدب، ويضطر إلى العمل في غير ذلك ليرتزق فينقطع عن الأدب والإبداع.

وليس الاستطراد وحده هو سمة أسلوب عباس خضر في سيرته، وإنما أيضا نلحظ (السخرية) سمة ظاهرة متجلية في أسلوبه، حتى إنه يروي مآسيه بسخرية لاذعة لا تخلو من مرارة، فكثيرا ما يسخر من فقره، حتى حينما ذكر زواج أبيه للمرة الثانية والتي كانت بداية القلاقل في الأسرة، قال: "في بلدنا مثل يقول: الفلاح لما يبيع القطن يا يحج .. يا يهج .. يا يتجوز! وأبي كان قد حج من قبل، ولم يهج أي يغادر القرية ويقيم في المدينة، ولكنه تزوج .. تزوج على أمي، فكان هذا بدءا للقلقلة في بيتنا وحياتنا"(١).

أو استمع إليه وهو يتحدث عن فقره وما كان يكابد من هموم العوز والدراسة والعمل، يقول: "كانت هذه الهموم قد استفحل أمرها لما مضت الأيام وطالت المدة ولم أقبض، لأن الوزارة إنما تصرف أجر العملية كلها بعد انتهائها .. وأبت بدلتي التي تقتبس من صفات الله تعالى الوحدانية والقدم أن تخضع لروتين الوزارة .. فانفجرت ثورتها في (المنطلون) عند الركبة، واستعصى الانفجار على الرتق إذ رق النسيج ولم يتحمل جولان الإبرة فيه .. واندلع لهيب الثورة إلى باقي المطالب من مسكن ومأكل ... إلخ"(٢).

أيضا من سمات أسلوب عباس خضر في سيرته (الفكاهة)، وهي سمة واضحة في أسلوبه حتى لكأنه مغرم بها، فهو يطلقها متى واتته الفرصة على لسانه أو يحكيها على لسان أصدقائه، ومن فكاهاته قوله: "ضبط نفسي متلبسة بكتابة مقال عنوانه على ثلاثة أعمدة هكذا: الشاعر الذي سجن العقاد وكسر رجل المازني وأسقط أربع وزارات.

والشاعر المقصود هو (ابن الرومي) وذهبت في المقال إلى أنه مشؤم، وأن شؤمه لحق بالعقاد لأنه درسه في كتابه: (ابن الرومي – حياته من شعره) فحكم عليه

---

(١) خطى مشيناها ص٤٢.

(٢) ذكرياتي الأدبية ص ١٢.

بالسجن، وكذلك وقع للمازني بعد أن كتب دراسات عن ابن الرومي، إذ وقع له حادث كسرت فيه رجله، ومددت الخيال المثير إلى أربعة وزراء للمعارف قرر كل منهم تأليف لجنة لإخراج ديوان ابن الرومي، فكانت الوزارة تستقيل عقب القرار"(١).

ومن فكاهاته حكاية على لسان أصدقائه، ما روى أنه كان يسكن في الدور الخامس وكان صديقه طاهر أبو فاشا يتردد عليه فكان أبو فاشا إذا همّ بالنزول يقول لعباس خضر: "ألا تريد شيئا من أهل الأرض؟"(٢).

أيضا من سمات أسلوبه التناص(٣) بالاقتباس(٤) من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، أو التأثر بالمقروء الثقافي من معاصريه.

فأما اقتباسه من القرآن الكريم، مثل قوله: "لا تسألوني عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم"(٥)، فهو يقتبس من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)(٦).

ومثل قوله: "وجعلنا نرميهم بحجارة نرجو أن تكون من سجيل، فتجعلهم كعصف مأكول"(٧)، فهو يقتبس من قوله تعالى: (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)(٨).

---

(١) ذكرياتي الأدبية ص٥٨.

(٢) خطى مشيناها ص١٣٤.

(٣) "التناص في أبسط صوره يعني: أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامل". (التناص نظريا وتطبيقيا لأحمد الزعبي ص ١١ – ط مؤسسة عمون للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – الثانية – ٢٠٠٠م).

(٤) الاقتباس: وهو "أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه". (الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص٣١٢ – وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين – ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ٢٠٠٣م.

(٥) ذكرياتي الأدبية ص٩٤.

(٦) سورة المائدة ، من الآية : ١٠١.

(٧) خطى مشيناها ص٤٧.

(٨) سورة الفيل ، الآيتان : ٤ : ٥.

ومثل قوله: "وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها"[١]، فهو يقتبس من قوله تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)[٢].

وأما اقتباسه من الحديث النبوي الشريف، مثل قوله: "وأننا جميعا لآدم وآدم من تراب"[٣]، فهو يقتبس من قول النبي – صلى الله عليه وسلم– "أنتم بنو آدم، وآدم من تراب"[٤].

أما تأثره ببعض عبارات وجمل استعارها من معاصريه سواء بوعي أو بغير وعي، مثل قوله معقبا على ما لاقاه من فقر بسبب الأدب: "ابتعدي أيتها المسماة حُرْفَة الأدب لا تدركيني"[٥]، فإنه هنا متأثر بعنوان كتاب لطاهر أبو فاشا: الذين أدركتهم حُرْفَةُ الأدب.

وأيضا مثل قوله: "وأتيت (بدلتي) التي تقتبس من صفات الله تعالى الوحدانية والقدم"[٦]، فإنه متأثر بفكاهة لحافظ إبراهيم لما سئل لماذا يحرص على ارتداء بدلة واحدة لا يغيرها فأجاب: لأن فيها صفتين من صفات الله عز وجل: القدم والوحدانية"[٧].

وأيضا مثل قوله في مقدمة كتابه ذكرياتي الأدبية:"وهي ذكريات وليست مذكرات"[٨]، فلعله تأثر بعنوان سيرة ثروت أباظة الذاتية: "ذكريات لا مذكرات".

---

(١) السابق ص٢٧٧.

(٢) سورة هود ، من الآية : ٤١.

(٣) خطى مشيناها ص ١٥١.

(٤) جزء من حديث نبوي شريف ، أخرجه أبو داود في سننه – باب/التفاخر بالأحساب – حديث رقم ٥١١٦ – ٤٣٨/٧ – ت/شعيب الأرنؤوط – ومحمد كامل قره – ط دار الرسالة العالمية – الأولى – ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

(٥) خطى مشيناها ص٢٤٨.

(٦) ذكرياتي الأدبية ص١٢.

(٧) ينظر: موسوعة المبدعون : النوادر والطرائف (الفكاهة) في الشعر العربي إعداد سراج الدين محمد ٦/ ٣٧ : ٣٨ – ط دار الراتب الجامعية – بيروت – لبنان – (د.ت).

(٨) ذكرياتي الأدبية ص٤.

وقد يكون هذا من قبيل توارد الخواطر أو يكون مما يختزن في الذاكرة من القراءة ويظهر في الأسلوب من غير قصد، وأيًّا ما كان، فالتناص ظاهرة في أسلوبه تستوجب التسجيل.

والسجع في أسلوب عباس خضر قليل ونادر، فلا نكاد نرى له أثرا في أسلوبه إلا نادرا مثل قوله عن نفسه ساخرا: "على خلاف واحد مثلي طويل هبيل، يذكر كل شيء على المكشوف، ويضع النقط على الحروف"(١).

أما أسلوبه في المجمل فهو سهل عذب يميل إلى الترسل والوضوح.

يقول أحد الكتاب عن أسلوب عباس خضر في سيرته: "كتاب خطى مشيناها لعباس خضر كتاب جميل، تفيض عباراته بعذوبة نابعة من سهولة العرض، وصفاء اللغة، والجملة القصيرة التي لا إفتعال فيها ولا تعقيد"(٢).

وعلى الجملة فقد كان أسلوب عباس خضر صورة لشخصيته، ومرآة لها.

* ثمة شيء بقي في الحديث عن أسلوب عباس خضر، وهو ذيوع بعض الألفاظ العامية في أسلوبه، رغم انتصاره للفصحى وتعصبه لها، فهو يقول في سيرته: "كانت تخيفنا – بل تزعجنا – حملات متطرفة هوجاء تهاجم اللغة العربية الفصيحة وتستهين بأدبها وتدعو إلى العامية وإلى الارتماء في أحضان الغرب"(٣).

فمع انتصاره للفصحى وسلامة بيانه إلا أنه تردد في أسلوبه بعض الألفاظ العامية في مواضع كثيرة من سيرته، سواء على لسانه أم على لسان غيره، مثل ألفاظ: (ملطشة – بالمندار – أزوّغ – نِشّعبط – الشللية)، وغيرها من الألفاظ.

ويلاحظ أيضا في أسلوب عباس خضر أنه قليل الاحتفال بالحوار، ويؤثر عليه السرد الحكائي، وقد كان يغلب على الحوار – الذي هو قليل في سيرته – صياغته بالعامية، استمع إليه وهو يحكي موقفا له في مطعم كان يتردد عليه، فقُدّم إليه مع الفول والطعمية بدل السلطة مشًّا، فظن أن هذا أمر طبعي وكان قد أعجبه ذلك، فلما كان الغد لم يجد مثل الأمس، فسأل عن المشّ، فضحك الخادم .. "قائلا وكأنه عثر على الفاعل في جريمة:

---

(١) السابق ص١٢٠.

(٢) رجال من بلادي لرجاء النقاش ص٣٤٥ – ط أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي – الأولى – ١٢٠١١م.

(٣) ذكرياتي الأدبية ص٨.

– هو أنت ؟!

–أنا إيه ؟

– اللي كلت المش..

– ...

– يا أستاذ ، دا أصله بتاع المعلم ، جايبينو من البيت عشانه"[١].

وقد يُنتصر لعباس خضر في أن تكون لغة الحوار عامية، أنه يريد أن يعبر عن اللهجة الطبيعية للأشخاص، ويحاول أن يضفي عليها مزيدا من الواقعية.

ثالثاً: تصوير الشخصيات والصراع.

اعتنى عباس خضر بتصوير الشخصيات وعرض صفاتها النفسية وشكلها الخارجي، وإن كان اعتناؤه بالشكل الخارجي وتصويره متحققا أكثر في كل شخصية تعرض لها، فهو مثلا: يصور الشيخ عبد اللطيف الذي يجاور في الأزهر منذ دهر لا يعلم مقداره إلا الله، فيقول: "الشيخ عبد اللطيف وهو برميل على رجلين، وله يدان تبرزان من أعلى البرميل، يوزع بهما الأجزاء على المستحقين، فإذا صدر إليه أمر بالعدّ فإنه يحرك أصبعه المكونة من عقله واحدة، ويصوبها إلى الموجودين، واحد .. اثنين .. ثلاثة .. إلخ"[٢].

وقد سبق أن عباس خضر صور نفسه بأنه نحيف طويل، هذا عن الشكل الخارجي.

أما تصويره مشاعره وخبايا نفسه فهذا هو الذي استفاض فيه، وهو أمر طبعي لكاتب قصصي يكتب سيرته الذاتية، فلا عجب إذن أن يعرض علينا في كل موقف خبايا نفسه وأدق مشاعره وخفايا أحاسيسه، فهو – مثلا – يصور شعوره وقد رأى أخوه تُعد له مراسم الزواج وقد ارتدى البدلة والتحق بتجهيزية دار العلوم العليا فصار أفنديا، فيقول: "صار أخي أفنديا من تلاميذ المدارس، وأنا لا أزال مجاورا بالأزهر .. وأخي هو الذي تُجرى مراسم الفرح احتفاء بزواجه، وأنا غيران من هذا وذاك ..

(١) خطى مشيناها ص ١٣٢.

(٢) السابق ص٨٥.

والعبء النفسي الذي أنوء به هو أنه يجب على أن أفرح لفرح أخي وفي أعماقي الأسى!"[١].

أيضا حفلت سيرته بتصوير الصراع النفسي بداخل عباس خضر بين الواجب واتباع الهوى، فهو – مثلا – يصور صراعه النفسي في واقعة أيام المراهقة وباكورة الشباب؛ إذ هام بفتاة وسولت له نفسه لكي تجري وراءه من يحبها أن يعمل لها سحرا، ولكي يتعلم السحر سرق مقدار كيلة من مخزن الغلال، وضبطه أبوه وعلم بالأمر، لكن الأب أدرك اندفاع حدثان الشباب فكتم الأمر ولم يحدّث به أحدا، ولم يضرب عباس ولا عاتبه أو عنفه بل على العكس ضحك، فكان صمت الأب وعدم تعنيفه وكتمان الأمر أشد ألما وتأنيبا للمراهق عباس، يتحدث عباس خضر عن هذه الواقعة فيقول: "فأرقني ذلك، ووجد ضميري المجال خاليا له، فأخذ يحاسبني حسابا عسيرا ..

كيف فعلت هذا ؟ هل هذا يليق ؟ أتسرق وتسحر؟!

ولمن تسحر ؟ لحبيبتك ! وماذا تريد منها يا فاسق ؟ يا فاشل !

اعترضت: هل أنا فاشل؟

أجاب ضميري: نعم فاشل، إنك تعاني من الحب ما تعاني، ولكنك لا تجرؤ على أن تعبر عما تشعر به لمن تحب، تتخيل في غيابها أنك ستفعل كذا أو تقول كيت، فإذا كنت أمامها أصابك البكم .. لا تفعل إلا أن تنظر إليها كالأبله!

– وماذا تريد أن أفعل ؟ ألست متناقضا في تأنيبك لي ؟

– لا ، أنت لم تفهمني ، ليس كل الحب منحرفا ..."[٢].

هكذا يصور عباس خضر صراعه النفسي وأدق أحاسيسه في سيرته.

رابعاً: الصدق والتعري النفسي والاعتراف.

صاغ عباس خضر سيرته في كتابيه بصيغة المتكلم، وأعلن أنه سيلتزم الصدق الصراحة التامة، فيقول: "والحديث في هذه الذكريات صريح غاية الصراحة كما سترى، وأزعم أنه صادق لم يعق صدقه عائق من الأغراض التي لممت شباكي زهدا

(١) خطى مشيناها ص ١٢٣.

(٢) خطى مشيناها ص٢٤.

في صيدها، بل كان الصدق هو الصيد الذي قنصته الشباك، وهو من المتع القليلة التي بقيت لي بعد العمر الطويل"[١].

ويقول في موضع آخر إنه تخلص من أشياء كان فيما مضى يصارع من أجل التخلص منها، ثم هو الآن – بعد رحلة عمر طويلة – "يراها تافهة أو سخيفة لا تستحق صراعا ولا تساوي بل لا تداني ما يشعر به المرء في قول الحقيقة من متعة"[٢].

فليس غريباً إذن أن تأتي سيرته حافلة بالتصوير الصادق الصريح لحياته ومشاعره، لقد تخطى الرجل حاجز الخوف من الاعتراف أو قول الحق، فجاءت سيرته من قِبَل أدب الاعترافات لما تمتلئ به من أحداث وأحاديث غاية في الصراحة وتعرية الذات.

إنه يطلعنا من دون خوف أو قلق على هفواته وأخطائه، ويعطينا صورة صريحة وصادقة عن شخصيته وحياة الفقر التي كان يكابدها، فتحدث بصراحة وفنية عن فقره، وما سببه له من عقدة جعلته يَجْفُلُ من صداقة من هم أغنى منه[٣]، ويشعر أحيانا بالضآلة في مجالس الكبار[٤]، تلك العقدة التي أرقته زمنا، لكنه يزعم أنه تخلص منها، بدليل أنه يحكي عنها الآن.

كما لم يمنعه البوح والصراحة أن يخشى من إدراك القارئ لسيرته شيئا من ضعف الوازع الديني في إحدى هفواته وهو أزهري وتربى تربية دينية، فنراه يعترف أنه شرب الخمر مرة واحدة طلبا لليقظة والنشاط[٥]، أو يحكي عن فترة المراهقة وريعان الشباب وأوائل فورانه، فيتحدث عن اختلاسه النظر للنساء، وهواجس جنسية كان تعبيره عنها تلميحا لا تصريحا، ولعل تلك التورية في التعبير والتلميح وتجنب التصريح راجع إلى أثر التربية الدينية ودراسته في الأزهر، وأثر البيئة الريفية التي تعرف (العيب)[٦].

---

(١) ذكرياتي الأدبية ص٤.

(٢) السابق ص٣.

(٣) يراجع ذلك الموقف في: خطى مشيناها ص٩٤ :٩٦.

(٤) ينظر: خطى مشيناها ص١٨٠.

(٥) ينظر: خطى مشيناها ص١٨٣ :١٨٤.

(٦) يراجع في ذلك: خطى مشيناها ص ٢١ ، ١١٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ وغيرها.

أيضا لم يخش تصوير جانب دقيق خفي في شخصيته، وهو الخوف والضعف والتردد في بعض الأحيان، الأمر الذي يبدو في مثل حديثه عن: عدوله عن الأذان في المسجد بعد محاولة يتيمة لم تتكرر(١)، أو انثنائه عن فكرة أن يكون مدرساً مثاليا يطبق النظريات التربوية الحديثة – وقد حاول ذلك مرهقا نفسه مجدّا في تحقيقه – ثم لم يلبث أن يعزف عن الفكرة سريعا بعدما استخف أحد زملائه بما يبذله، فتراخى مع المتراخين(٢).

أيضا: حمله البوح والتزام الصراحة والصدق أن يعترف بأنه جامل صديقه كامل كيلاني مُكرها بمدحه في حفل أعد لتكريم كامل الكيلاني(٣)، أو يعترف بتقصيره أو تغافله في مقال له عن إبراز جهد صديقه شوقي أمين في رواية (ابن جلا) لمحمود تيمور(٤)، أو اعترافه بأنه تحامل بالنقد اللاذع على الشاعر محمد مصطفى الماحي لأن الماحي لم يساعده في الحصول على وظيفة(٥)، أو اعترافه بأنه كان يسرق الأخبار من جريدة صباحية وينشرها في جريدة مسائية بعد تغيير للعنوان والصياغة(٦).

على أن هذه الصراحة لم تمنعه من بعض العجب بنفسه ومدح ذاته في بعض المواقف، وكأن هاتفا يهمس في أذنه: لا تجلد ذاتك، وكن منصفا لها، وأظهر شيئا من محاسنها. فنراه في سياق حديثه عن فقره المدقع والعقدة التي سببها له يعلن أنه لم تحدثه نفسه يوما أن يرتشي، ويصف نفسه بأنه في هذا الجانب كان شرسا عنيدا(٧)، كما صرح بأنه يستهويه أن يكون مميزا ومختلفا، غير تقليدي، وفي ذلك يقول:"أحب دائما أن أصنع شيئا على غير مثال"(٨).

---

(١) ينظر: خطى مشيناها ص١٢٥.
(٢) ينظر: السابق ص٢٢٠ :٢٢١.
(٣) ينظر: السابق ص١٧٤.
(٤) ينظر: السابق ص١٥٦.
(٥) ينظر: ذكرياتي الأدبي ص٩.
(٦) ينظر: السابق ص٩.
(٧) ينظر: السابق ص١٨٠ ، ينظر: ذكرياتي الأدبي ص ٧٥.
(٨) خطى مشيناها ص٢٦٥.

خامساً: دلالة السيرة على شخصية كاتبها.

يلاحظ أن حضور عباس خضر الناقد في سيرته واضح وشائع في ثنايا الأحداث، فهو يحللّ ويعللّ ويعلّق على الأحداث بعد سردها فلا يدعها تمر هكذا مرور الكرام حكيا استعادياً لمجرد المتعة والتسلية، وما ذاك إلا لسيطرة حسه النقدي على قلمه، وهو يصرح بذلك فيقول: "أعتقد أني خلقت ناقدا، بمعنى أني أنفعل بما أراه وما يدور حولي، وأحاول تفهمه، ولا أسكت عن إبداء ما يعن لي فيه"(١).

نقف على هذه الظاهرة بوضوح في جميع أحداث السيرة، حتى لكأنه شاهد على عصره والمؤثرات في مسيرة الحياة الأدبية، فهو مثلا يسمي النتاج الأدبي في فترة الحرب العالمية الثانية بـــ (أدب الحرب) مشاكله لعبارة (غنى الحرب)، فقد شاعت في مصر إبّان ذاك الوقت كتابات جنسية يتسلى بها الناس(٢)، وهو بذلك يشير إلى أثر الحياة السياسية على حركة الإبداع الأدبي.

ونراه مثلا يعقب على مراحل تدرج فكره النقدي من الشباب حتى الشيخوخة من مرحلة الكلاسيكية إلى الرومانسية ثم الواقعية ثم النضج. كما تتبع ورصد حركة النقد الأدبي في هذه الفترة، فخلص من كل ذلك إلى نتيجة عامة، فقال: "وأعتقد أن من المشكلات في النقد الأدبي أن مزاوله إما شاب غرير جريء فيه جهالة، أو رجل كبر ونضج ولكن جرأته تقل أو تنعدم إزاء علاقاته ومطالب حياته"(٣).

ومثل تعقيبه على واقعة زواج أبيه من زنجية أصلها من الرقيق، وأن الجميع وهو منهم استاء لذلك، فيعقب على هذا قائلا: "ولا شك أننا – وأنا داخل طبعا في الضمير (نا) – نكتب ونقول عن المساواة والإخاء بين بني الإنسان وعن مساوئ التفرقة العنصرية وأننا جميعا لآدم وآدم من تراب .. إلى آخر ما يقال في الكتابات الحديثة وفي المواعظ الدينية جميعا، ولكن في طباعنا ومشاعرنا رواسب تختلف تماما عما نخطه بالأقلام وما نصيح به على المنبر"(٤). فهذا تحليل لنفسه ممزوج بحس الناقد.

---

(١) خطى مشيناها ص٢٠٥.

(٢) ينظر: السابق ص٢٤٧.

(٣) ذكرياتي الأدبية ص٢٥.

(٤) خطى مشيناها ص ١٥١.

ومثل ذلك كثير في سيرته، مما يؤكد على أن سيرته كانت تهتم برصد الجانب الفكري في شخصيته خاصة الجانب النقدي والثقافي، ويدعم هذا أنه لم يحتفل بالحديث عن أسرته، فقد جاء الحديث عنهم مقتضبا موجزا، أما الحياة الاجتماعية العامة والحياة الأدبية في زمانه فقد حفل بها وأفرد لها كل المساحة.

لكن ثمة أمر جدير بالتسجيل، وهو أنه رغم احتفاء عباس خضر بالحياة الأدبية في سيرته إلا أنه لم يحتفل بذكر نتاجه الأدبي كله، فقد جاءت إشارات سريعة إلى بعض قصص قصيرة كتبها، وتوسع بعض الشيء في الحديث عن كتابه: القصة القصيرة في مصر، أما غير ذلك من نتاجه الأدبي الغزير فلم يتطرق إليه[1]، ولعل ذلك راجع إلى خوف أن يتملكه العجب والزهو بذاته، فاهتم برصد الحياة الأدبية في زمانه جاعلا من سرد حياته وتصوير شخصيته محور الذكريات والأحداث وتجميع الشخصيات.

وعلى الجملة فقد جاءت سيرة عباس خضر عاكسة لشخصيته ومصورة لها في كل جوانبها وقد أبدع فيها وأجاد.

---

(١) بلغ نتاج عباس خضر النقدي والإبداعي ثلاثة وعشرين مؤلفا، غير مقالات جمة نشرها في مجلات وجرائد عديدة في مصر والوطن العربي، ومؤلفاته هي : ١- غرام الأدباء. ٢- أدباؤنا في طفولتهم. ٣- كتاب معاصرون. ٤- قصص أعجبتني. ٥- كتب في الميزان. ٦- محمد تيمور: حياته وأدبه. ٧- الواقعية في الأدب. ٨- القصة القصيرة في مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠م. ٩- أدب المقاومة. ١٠- الأدب والمواطن. ١١- هؤلاء عرفتهم. ١٢- العرب في قصصهم. ١٣- الست علية (قصص قصيرة) . ١٤- مديحة (قصص قصيرة). ١٥- العجوز والحب (قصص قصيرة). ١٦- حواديت عربية (قصص قصيرة) وهو جزءان : الأول بعنوان: الطير الخداري ، والثاني بعنوان: أم السعد. ١٧- كتاب على الرف (قصص قصيرة). ١٨- حمزة العرب (رواية). ١٩- الصحصاح (رواية). ٢٠- ذات الهمة (رواية). ٢١- الفارس الأسود (رواية). ٢٢- ذكرياتي الأدبية (سيرة ذاتية). ٢٣- خطى مشيناها (سيرة ذاتية). (ينظر: معجم الروائيين العرب للدكتور/ سمر روحي الفيصل ص٢٣٨ : ٢٣٩ – ط جروس برس – طرابلس – لبنان – الأولى – ١٩٩٥م/١٤١٥هـ ، وتكملة معجم المؤلفين لمحمد خير رمضان يوسف ص٢٦٥ : ٢٦٦ – ط دار ابن حزم – الأولى – ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، وتتمة الأعلام للزركلي تأليف محمد خير رمضان يوسف ٢٦٤/١ – ط دار ابن حزم – الثانية – ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، وإتمام الأعلام (ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي) تأليف الدكتور/نزار أباظة ومحمد رياض المالح ص١٤٤ – ط دار صادر – بيروت – لبنان – الأولى – ١٩٩٩م).

يقول أحد النقاد عنه: "وأعتقد أن عباس خضر من أبدع من كتبوا السيرة الأدبية في كتابيه: (ذكرياتي الأدبية) و (خطى مشيناها) ... وجاءت السيرتان مفعمتان برصد ووصف الحياة الأدبية بشكل واسع، وأعتقد أن اللذين يريدون معرفة كواليس الحياة الأدبية في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات لابد أن يعودوا إلى هاتين السيرتين اللتين تحويان على كمية أخبار وأحداث هائلة، وكتبهما عباس خضر في سلاسة مبهرة بالفعل"(١).

إن هذا الحكم المجمل عن الأسلوب والمضمون مقبول وواقع وقد فُصّل الإجمال فيما سبق عرضه، لكن حصر خبايا الحياة الأدبية في فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين فقط فهذا أمر فيه نظر؛ لأن حديث عباس خضر عن هذه الخبايا امتد إلى أبعد من ذلك، لقد امتد من فترة الثلاثينيات – بداية عمله بالكتابة – وحتى أوائل السبعينيات – وقت كتابة سيرته –؛ إذ يقول عباس خضر عن ذكرياته الأدبية: "هي حديث عن شخصيات وقضايا فكرية، عاصرتها واحتككت بها من قريب ومن البعيد على نحو أربعين عاماً، ولا تزال بعض تلك القضايا قائمة حتى اليوم؛ ولهذا امتد الحديث إلى الحاضر مقرونا بالماضي"(٢).

أيضاً يقول ناقد آخر عن كتاب خطى مشيناها: "إن الأفكار في ثنايا خطى مشيناها تبدو هامة وجديدة لكل مهتم بالدراسات الاجتماعية للأدب"(٣).

هذا لأن عباس خضر اهتم بالنواحي الاجتماعية وأثرها في نتاجه إبداعاً ونقداً، وكذلك أثر العلاقات الاجتماعية في نقد النقاد، وقد وُضّحتْ تلك المعالم في ثنايا هذا البحث.

وعلى الجملة، فقد جاءت سيرة عباس خضر الذاتية صورة لشخصيته سواء في اختيار الأحداث أو طريقة العرض والبناء أو الأسلوب.

---

(١) مقال بعنوان: عباس خضر والتجاهل التام لوجوده للكاتب شعبان يوسف – نشر بجريدة أخبار الأدب – العدد ١٢٠٨ – بتاريخ ١٨ / ٠٩ / ٢٠١٦م.

(٢) ذكرياتي الأدبية ص٤.

(٣) عصير الكتب لعلاء الديب ص٢٥٦ – ط دار الشروق – الأولى – ٢٠١٠م.

الخاتمة

الحمد لله بُكْرةً وعشيّا، والصلاة والسلام على الهادي صراطاً سويًّا، وعلى الآل والصحب مليًّا.

وبعد..

فقد أثمر البحث بعد العيش مع سيرة عباس خضر الذاتية عرضًا ودراسةً وتحليلاً ونقداً إلى نتائج كانت وليدة الموضوعية والتأمل وفق المنهج التكاملي، وأهم هذه النتائج ما يلي:

١- الوقوف على تعريف دقيق للسيرة الذاتية، وجمع أهم سماتها المميزة.

٢- مثّل الانزياح على مستوى النص ظاهرة عند عباس خضر في بنائه الفني لسيرته الذاتية وخطته ومنهجه في عرض الأحداث.

٣- اتسم أسلوبه بالاستطراد، والسخرية، والفكاهة، والتناص.

٤- اعتمد أسلوبه على الترسل والوضوح والعذوبة في اللفظ والجمل القصيرة.

٥- جاء أسلوبه صورة لشخصيته.

٦- اهتم بتصوير الملامح الخارجية للشخصيات، وكذلك الصراع الداخلي، وحديث النفس.

٧- صاغ سيرته بضمير المتكلم، والتزم الصدق والصراحة التامة.

٨- اعتمد على التلميح وتجنب التصريح في اعترافاته عن أحاديث النفس في سنوات المراهقة.

٩- كان حضور عباس خضر الناقد أكثر في سرد الأحداث.

١٠-غلب على أسلوبه انكار الذات وتجنب العجب، وتمثل ذلك بوضوح في قلة احتفائه بذكر كافة نتاجه الإبداعي والنقدي.

١١-استوفت سيرته جميع مراحل حياته، وأعطت صورة مكتملة لشخصيته والمؤثرات فيها.

كانت هذه أهم النتائج التي تمخض عنها البحث

والحمد لله في المبتدأ والمختتم.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم جل من أنزله

ثانياً: المصادر.

- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني – وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين – ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ٢٠٠٣م.
- خطى مشيناها لعباس خضر – ط دار المعارف – مصر – ١٩٧٧م.
- ذكرياتي الأدبية لعباس خضر – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – ٢٠٠٦م.
- القاموس المحيد للفيروز أبادي – ت / مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف / محمد نعيم العرقسوسي – ط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت لبنان – الثامنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- لسان العرب لابن منظور الإفريقي – ط دار صادر – بيروت – الثالثة – ١٤١٤هـ.

ثالثاً: المراجع.

- إتمام الأعلام (ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي) إعداد الدكتور/نزار أباظة، ومحمد رياض المالح – ط دار صادر – بيروت – لبنان – الأولى – ١٩٩٩م.
- أدب السيرة الذاتية للدكتور/ عبد العزيز شرف – ط دار نوبار للطباعة – مصر – ١٩٩٢م.
- الأزهر في ألف عام تأليف الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، والأستاذ الدكتور علي علي صبح – ط المكتبة الأزهرية للتراث – الثالثة – ١٤٢٩ه ٢٠٠٩م.
- أساليب التعبير الأدبي لإبراهيم السعافين وآخرون – ط دار الشروق – عمان – الأولى – ١٩٩٧م.
- الأسلوبية والأسلوب للدكتور /عبد السلام المسدي – ط الدار العربية للكتاب – الثالثة.
- أطياف الوجه الواحد دراسات نقدية في النظرية والتطبيق للدكتور / نعيم اليافي – ط مطبعة اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٧م.
- التاريخ والسير لحسين فوزي النجار – ط دار القلم –١٩٦٤م.
- تتمة الأعلام للزركلي تأليف محمد خير رمضان يوسف – ط دار ابن حزم – الثانية – ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- التراجم والسير لمحمد عبد الغني حسن – ط دار المعارف – الثالثة – ١٩٨٧م.

- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث للدكتور/ يحيى إبراهيم عبد الدايم – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان – ١٩٧٥م.
- تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير رمضان يوسف – ط دار ابن حزم – الأولى – ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- التناص نظريا وتطبيقيا لأحمد الزعبي– ط مؤسسة عمون للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – الثانية – ٢٠٠٠م.
- حياتي لأحمد أمين – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٣م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي – ت/محمد عبده عزام – ط دار المعارف – مصر – الرابعة – ١٩٨٢م.
- رجال من بلادي لرجاء النقاش – ط أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي – الأولى – ٢٠١١م.
- سنن أبي داود – ت/شعيب الأرنؤوط – ومحمد كامل قره – ط دار الرسالة العالمية – الأولى – ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوفان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا لتهاني عبد الفتاح شاكر – ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الأولى – ٢٠٠٢م.
- السيرة الذاتية في التراث للدكتور/ شوقي المعاملي – ط دار مكتبة النهضة – ١٩٨٩م.
- السيرة تاريخ وفن للدكتور/ ماهر حسن فهمي _ ط مكتبة النهضة المصرية _ الأولى _ ١٩٧٠م.
- سيرة ذاتية عربية للطفي نبيل – ط دار الهلال – ١٩٩٢م.
- طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية للدكتورة رشيدة مهران – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – الأولى – ١٩٧٩م.
- عصير الكتب لعلاء الديب – ط دار الشروق – الأولى – ٢٠١٠م.
- فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه لمحمد صالح الشنطي – ط دار الأندلس للنشر والتوزيع _ السعودية _ حائل _ الخامسة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
- فن السيرة للدكتور/ إحسان عباس – ط دار الثقافة – بيروت – لبنان – الرابعة – ١٩٧٨م.

- الفنون الأدبية وأعلامها لأنيس المقدسي – ط دار الكتاب اللبناني – ١٩٦٣م.
- في الميزان الجديد للدكتور/ محمد مندور – ط مطبعة كوتيب – تونس – الأولى – ١٩٨٨م.
- معجم الروائيين العرب للدكتور/ سمر روحي الفيصل – ط جروس برس – طرابلس – لبنان – الأولى – ١٩٩٥م/١٤١٥هـ.
- المعجم الأدبي لجبور عبد النور – ط دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – الثانية – ١٩٨٤م
- المعجم المفصل في الأدب إعداد الدكتور محمد التونجي – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الثانية – ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه لسيد قطب – ط دار الفكر العربي – الثالثة – ١٩٩٦م.

رابعاً: الدوريات.

- جريدة أخبار الأدب – العدد ١٢٠٨ – بتاريخ ١٨ / ٠٩ / ٢٠١٦م.